

محاضرة المدخل إلى علم الفقه

د. عامر بهجت

المقطع الأول والثاني

مقدمة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، الحمد لله وصلى الله وسلم على رسول الله سيّد الفقهاء وعلى آله وصحبه العلماء.

أمّا بعد :

حيّاكم الله وبيّاكم في هذا الدرس وهو الدرس الأول من مقرّر المدخل إلى الفقه الإسلامي الذي وعدناكم أن نبدأ فيه بإذن الله عزّ وجل لنتعرف على هذا العلم الجليل: علم الفقه، ما تعريفه؟ ما بداياته؟

كلّ هذا -بإذن الله عزّ وجل- نتناوله في هذا المقرّر، ونحن الآن على الموعد مع الدرس الأول .

سجلت لكم هذه الدروس من جامع الملك سعود في مدينة جدّة، لأنّي وجدت الأنشط لي في الحديث والأكثر تفاعلا وحيويةً أن أتَّحدث أمام الناس، ولكنّي أخصّكم أيضًا بهذه المقدمات، وأخصّكم بالتفاعل والإجابة على أسئلتكم بإذن الله عز وجل فتفضّلوا إلى الدرس الأول.

فهذا هو الدرس الأول من دروس مقرّر المدخل إلى الفقه الإسلامي أو المدخل إلى علم الفقه. وهذا المقرر وهذه الدورة هي من المقرّرات، وتتضمن عددًا من المسائل المهمة لطالب العلم الذي يريد أن يدرس الفقه. ذلك أنّ الانسان في دراسته للفقه يشرع في دراسة المسائل الفقهية والمسائل الشرعيّة المتعلقة بأفعال المكلفين، ولكنّه يحتاج قبل ذلك إلى بعض المقدّمات وبعض القواعد التي تتعلق بهذا العلم.

ولا أحبُّ أن أُطيلَ في المقدمات لأنّه أصلًا هذه المادة هي مقدمة، فأنا لا أحبُّ أن أُطيل في مقدمة هذه المقدمة، ولهذا نشرع بإذن الله عزّ وجل في هذا المقرر .

أهداف المقرر

أول شيء بإذن الله عز وجل نتعلم أهداف المقرر:

١) أن يتّعرف الدارس على معنى الفقه وفضله وحكم تعلمه.

٢) أن يرغب الدارس في تعلم الفقه: هذا المقرر أيّها الأخوة الكرام وهذه الدورة تهدف إلى أهدافٍ. من أهم هذه الأهداف ما يتعلق بالأهداف الوجدانية؛ الأهداف الوجدانية يعني من أهمّ أهداف هذه الدورة أن يحصِّل الانسان في داخله رغبة تدفعه إلى دراسة الفقه وأن يَحصل له في قلبه وفي صدره تعظيم لهذا العلم الجديد.

٣) أن يدرك الدارس المراحل التاريخية لعلم الفقه.

٤) أن يصير الدارسُ معظمًا لأئمة الفقه معترفا بفضلهم مُجلًا لجهودهم.

هذا هدف وجداني لأنّنا أيّها الاخوة الكرام، إذا شرعنا مباشرة في دراسة الفقه، فإنّ بعض الدارسين لهذا الفقه يُقْدِم على دراسة الفقه، ويبدأ في دراسة المسائل، وليس عنده قناعة بهذا العلم، وليس عنده قناعة بهذا المذهب الذي يدرسه، تجده يدخل في دراسة الفقه وهو في قرارة نفسه يقول هذه أقوال رجال -تمام- وكلام فقهاء، نقبل منه ما وافق الكتاب والسنة وما خالف الكتاب والسنة نضرب به عرض الحائط.

فهو يفترض في نفسه وفي داخله أنّ هذا الكلام جزء منه استُقيَ من الأدّلةِ الشرعية وبني عليها، وأنّ فيه مسائل لم تُبْنَ على الدليل الشرعي. من أينَ أتت؟! هو يتصور ويتخيل أنّ جزءًا من الفقه الإسلامي هو رأي محض، ونقصد بالرأي المحض يعني أنّه رأي غير مبني على الدليل الشرعي من الكتاب والسنة.

بل أنّي أعرف واحدًا -وهذا استطراد- لمّا بدأ في دراسة زاد المستقنع في كليّة الشريعة، بدأ في نسخته في زاد المستقنع يشطب على بعض المسائل، يقول أنا أريد حفظ زاد المستقنع، لكن أحفظ منه فقط ما وافقَ الكتاب والسنة؛ ما وافقَ القول الراجح. بدأ يشطب (أقسامُ المياه ثلاثة)، شَطَّبَ عليها، هذا مخالف للدليل، والراجح أنّها إثنان وهكذا !! فهو يتّصور في قرارة نفسهِ أنّ هذا الفقه فقهٌ مَبنيٌ على أقوالِ الرجال المحضة.

الإنسان الذي يدخل لدراسة أيّ علم من العلوم (ليس فقط علم الفقه) أيُّ علم من العلوم، إذا أقبلتَ على دراستهِ بهذه النفسية لا يمكن أبدًا أن تحصله تحصيلًا تامًا..أبدًا!!

يعني أنا لو أعطيتك كتاب من الكتب و قلت لك: يا أخي تعال ادرس هذا، مثلًا أريدك أن تدرس الانجليزية، لكن الانجليزية ليست لها فائدة وأشياء كثيرة من هذا الكتاب الذي ستدرسه أكثره أغلاط، والحقيقة أنّ جزء كبيرا من المقرر الذي عندك هذا (مادة الإنجليزي) مسائل ليس عليها العَمل، واللغة الانجليزية في وادٍ وهذا في واد، تفضل ادرس الكتاب.. سَتجِدُ حاجزًا منيعًا بينك وبين هذا الكتاب صح!!؟. أول أسبوع ستذهب إلى عَمادةِ الكليّة لتحذف المقرر، ويمكن تترك الدراسة أصالةً .

كثير من الناس يأتي ويسأل يقول: كيفَ أضبطَ الفقه؟!. الفقهُ علمٌ مُتَشَعِب، هذا السؤال يمكن سُئِلتهُ عشرات المرات إن لم يكن أكثر من ذلك،"كيف نضبط الفقه!؟ ."

أقول: أوّلُ خطوة لِتضبط الفقه -إذا أنتَ تريد أن تضبط هذا العلم- ، أول خطوة لضبط العلم أن تكون على قناعةٍ بهذا العمل.

إذا لم تكن على قناعة - الإنسان يأتي ويدرس علم الفقه، مثلًا زاد المستقنع أو عُمدة الفقه أو الروض المُربع، ويقول هذه أقوال رجال، الفقه إنّما يحصلُ من دراسة بلوغ المرام وعمدة الأحكام - كيف ستحصّل الفقه إذا أنت في أوّل دراستك للفقه بَنيت سورًا وحاجزًا مَنيعًا بينك وبينه.

فلهذا جاءت هذه المادة وهذه الدورة وهذا المُقَرر حتى إذا أراد الإنسان أن يدرس الفقه، يدخل من المدخل الصحيح ويدرس هذا العلم وهو على قناعة به، وهو يعرف نسب هذا العلم وسند هذا العلم وامتداد هذا العلم، وأنّ هذه المدارس الفقهية الموجودة -المدارس الفقهية الأربعة من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة- أنّها امتدادٌ للمدرسة التي علم فيها النبي ﷺ الصحابة الفقه، وامتداد لمدارس الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، وليس فيها مسألة واحدة إلاّ وهي مبنية على الدليل الشرعي.

لا نقول أنّ النتيجة لابّد أن تكون صوابًا محضًا، فإنّ كل مذهب من المذاهب فيه صواب وفيه خطأ، لكن لا يمكن لعالم يتّقي الله عزّ وجل، عالم وإمام من أئمة الدين لا يمكن أن يقول في شرع الله عزّ وجل حرفًا ولا كلمةً إلاّ بحجةٍ ودليل.

لا يلزم من هذا أنّ النتيجة صواب، فإنّ ليس كل مجتهد مصيب - كما سيأتي الاشارة لذلك بإذن الله عزّ وجل - فإنّ المجتهد قد يصيب وقد يخطئ، ولكن المجتهد الذي يخاف الله والمفتي الذي يتّقي الله عز وجل لا يمكن أن يتكلم في دين الله عز وجل من غير علم ولا دليل.

ولهذا بعض النّاس يقول لك - حتى قالها أحد الطلاب لي صراحةً- قال: "لو حذفنا من الروض المُربع المسائل التي ليس عليها دليل ولا أثارة من الدليل، لمزقنا منه صفحات كثيرة". هل يمكن لإنسان ينظر الى كتاب الروض المربع بهذه النفسية! هل يمكن أن يضبط كتاب الروض المربع أو أن يتقنه!. هذا لا يمكن.

٥) أن يفهم الدارس الفروق بين المدارس الفقهية: ما الفرق بين المدارس الفقهية، وما الفرق بين مثلا مدرسة أهل الحديث وأهل الرأي وأهل الظاهر! وما هي المدارس الفقهية المُحْدَثة التي ظهرت في العصر الحاضر.

٦) أن يعرف الدارس معنى التمذهبَ وحُكمَهُ. ويُفَرِّق بينَ الممنوعِ مِنهُ والجائز.

هذا بالنسبة للأهداف.

مفردات المقرر

بالنسبة لمفردات المقرر سنتناول بإذن الله عز وجل:

١. التعريفُ العام بعلم الفقه. ويتّضمن معناه لغةً وشرعًا واصطلاحًا، وموضوع علم الفقه وفضله وحكم تعلمهِ إن شاء الله.

٢. والمراحل التي مرّ بها الفقه الاسلامي.

٣. وخصائص مرحلة التشريع وهي أوّل مراحل الفقه وَأهم معالمها.

٤. ثمّ الفقه في زمن الصحابة، وأبرز فقهاء الصحابة رضوان الله تعالى عليهم.

٥. ثمّ المدارس الفقهية في زمن التابعين.

٦. ثمّ التعريف بكل مذهب من المذاهب الأربعة: يتضمن هذا التعريف اسم إمام المذهب ونسبه وتاريخه وعبادته وعلمه والمراحل التي مر بها المذهب، وأبرز فقهاء المذهب في كل مرحلة.

٧. ثمّ نتكلم بإذن الله عزّ وجل عن المذاهب المُنْدَرِسة، المذاهب التي قامت في حقبة من حقب التاريخ؛ مذاهب فقهية قامت وكان لها أتباع يُدينون بها ويقلدونها، ثم بعد ذلك اندَرَست وانتهت.

٨. ثمّ معالم الفقه في العصر الحاضر وبعض المعالم الرئيسية في ذلك.

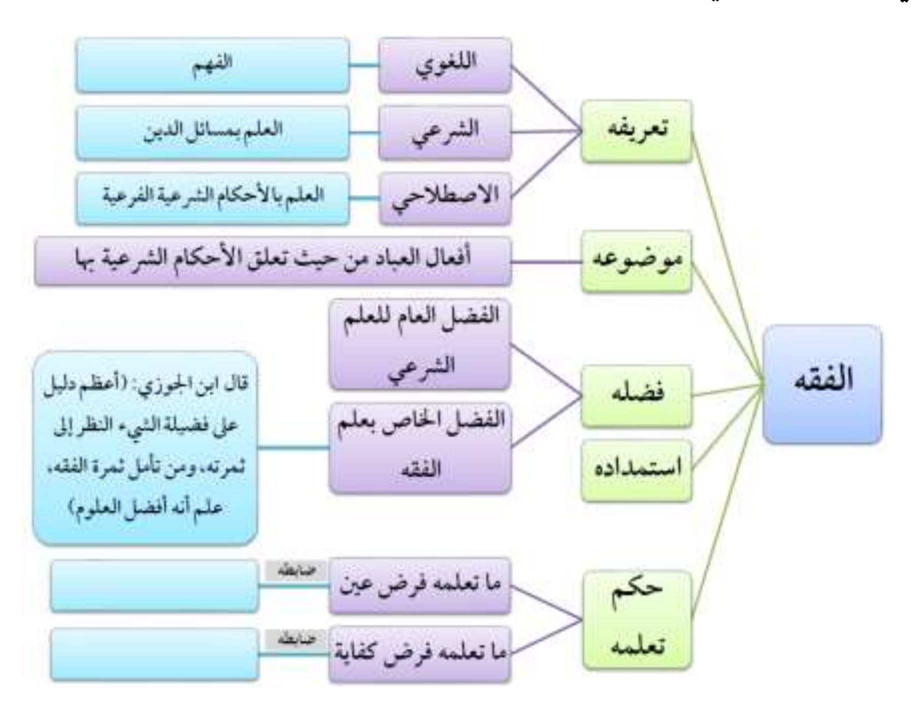
٩. ثمّ التمذهب والموقف منه.

١٠. ثمّ المدارس الفقهية (أهل الحديث وأهل الرأي وأهل الظاهر والمدرسة العقلية).

١١. ثمّ الكلام عن أسباب اختلاف العلماء والموقف من ذلك.

التعريفُ العام بعلم الفقه

نبدأ بالنقطة الأولى وهي ما يتعلق بتعريف الفقه لغة واصطلاحًا .



الفقه أيها الإخوة الكرام له تعريف لغويٌّ، وتعريف شرعيٌّ، وتعريف اصطلاحي. وهذه التعريفات الثلاثة تمثل ثلاث دوائر: كبرى ووسطى وصغرى. ثلاث دوائر، أيّها أوسع؟ ما أوسع الدوائر الثلاث؟ عندنا تعريف الفقه لغة، وتعريفه شرعًا، وتعريفه اصطلاحًا. أوسع هذه الدوائر؟ الاصطلاحي؟ اللغوي؟

تعريف الفقه لغة

تعريف الفقه لغة هو الفهم عمومًا، سواء كان هذا الفهم يتعلق بمسألة من مسائل الشريعة، أو بمسألة من مسائل الكيمياء، أو بمسألة مسائل الرياضيات، أو بمسألة المسائل الهندسة إلى آخره، واضح؟ إذًا الفقه لغة يشمل العلم الشرعي وغير الشرعي. تقول مثلا مسألة من مسائل رياضية تقول فقهت هذه المسألة يعني فهمتها. هذا ما يتعلق بالتعريف اللغوي.

تعريف الفقه شرعا

وأمّا التعريف الشرعي فهو العلم بمسائل الدين عمومًا، سواء كانت المسألة من مسائل العمل التي تتعلق بأفعال المكلفين؛ مثل معرفة الصلاة، وأركان الصلاة هذه من مسائل الدين ومن مسائل الشريعة، فمعرفتها تدخل في الفقه بالمعنى الشرعي. طيب، معرفة صفات الله سبحانه وتعالى، هل تدخل في الفقه بالمعنى الشرعي في قوله ﷺ: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين»؟ ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾.

الفقه في الدين، هل يشمل المسائل التي تتعلق -مثلًا- بالجنة والنار؟ معرفة صفة الجنة وصفة النار وقصص الأنبياء إلى آخره، ما رأيكم؟ نقول: نعم، بالمعنى الشرعي يشمل ذلك. إذًا إذا ورد في نصوص الكتاب والسنة لفظ الفقه، فضل الفقه، من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، في قول الله عز وجل: ﴿ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ نعم، فالمراد بذلك جميع مسائل الدين، سواء منها ما يتعلق بالأحكام العملية، أو ما يتعلق بغير ذلك .

تعريف الفقه إصطلاحا

النوع الثالث أو التعريف الثالث: التعريف الاصطلاحي وهذا هو العلم بالأحكام الشرعية الفرعية، أو العلم بالأحكام الشرعية العملية التي تتعلق بأفعال المكلفين . إذًا الاصطلاحي أعم ولا الشرعي أعم؟ الشرعي أعم.

يعني خلّينا نأخذ مثال: إنسان حضر محاضرة في صفة الجنة والنار، وفهم المحاضرة:

- هذه فقه بالمعنى اللغوي وإلاّ لأ؟ فقه وإلاّ لأ؟ فقه .
- طيب، بالمعنى الشرعي هل هذا تفقه في الدين؟ وإلا ما يدخل في حديث التفقه في الدين؟ يدخل في ذلك.
- طيب، بالمعنى الاصطلاحي الخاص؟ لا يدخل.

طيب، خلينا نفرض المسألة في الآتي: خرجت أنت من المسجد -و إلاّ داخل المسجد- وجدت ثلاث إعلانات:

١. إعلان: شرح كتاب -مثلًا- السلم المنورق في المنطق
٢. الإعلان الثاني: شرح كتاب الرقاق من صحيح الإمام البخاري
٣. الإعلان الثالث: شرح كتاب زاد المستقنع.

طيب، حضرت هذه الدروس، نبدأ بالمسألة الأولى -طبعًا حضرتها وفهمت:

- أي هذه يعتبر من الفقه بالمعنى اللغوي؟ الثلاثة كلها. كلها الثلاثة تعتبر من الفقه بالمعنى اللغوي.
- طيب، الفقه بالمعنى الشرعي الذي ورد فيه الفضل مثل قول النبي ﷺ «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين»، ومثل ما جاء في قول الله عز وجل: ﴿ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ ينطبق على حضورك لأيّ واحد من هذه الثلاثة؟ زاد المستقنع؟ ولا السلم المنورق في علم المنطق؟ ولا شرح كتاب الرقاق من صحيح البخاري؟ الثاني والثالث؛ شرح كتاب الرقاق من صحيح البخاري هذا من الفقه في الدين وإلاّ لا؟ من الفقه في الدين.

وهذه المسألة من المسائل التي يحصل فيها خلل عند بعض الناس حتى عند بعض طلاب العلم، فهو يتصور أنّه إذا حضر موعظة تتضمن صفة الجنة والنار وأسباب النجاة من عذاب القبر، ونحو ذلك، يتصور أن هذا ليس من طلب العلم الشرعي، وليس من التفقه في الدين، صح وإلاّ لا؟ أليس كذلك؟ هذا عند كثير من الناس، شائع وموجود عند كثير من الناس؛ ولهذا تجد أنه إذا رأى إعلان مثلًا محاضرة عن صفة الجنة والنار، وإعلان شرح زاد المستقنع، ما الذي يتبادر إلى ذهنه أنه من التفقه في الدين ومن طلب العلم الشرعي؟ زاد المستقنع بس! وهذا من الخطأ؛ فإنّ الفقه بالمعنى الشرعي والتفقه في الدين يشمل ذلك، بل إنّ التفقه في بعض المسائل التي لا تتعلق بالعمل أعظم وأولى دخولًا .

يعني لو أنّ الإنسان حضر دورة أو درسًا أو قرأ كتابًا في معرفة صفات الله عز وجل، وما يتعلق مثلًا بأمور الآخرة وصفة الجنة والنار، هذا ربما ينطبق عليه وصف العلم الشرعي بشكل أولى من معرفته ببعض مسائل الفقه الفرعية.

إذًا هذه من المسائل المهمة التي قد يحصل فيها إخلال، ولهذا لما نقرأ في قول الله عز وجل: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ هذه في أي سياق وردت؟ ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فالإنسان الذي يحصل خشية الله عز وجل، ورجاء رحمته -شوف المعاني القلبية هذه خوف، يحذر الاخرة ويرجو رحمة ربه- هذه من أعظم العلم بالمعنى الشرعي، وإن لم تكن بالمعنى الاصطلاحي الخاص، ممّا يطلق عليه معنى الفقه.

موضوع علم الفقه

ننتقل الآن إلى موضوع علم الفقه.

موضوع علم الفقه هو أفعال العباد من حيث تعلق الأحكام الشرعية بها. وموضوع العلم هو ما يبحث فيه هذا العلم، يعني مثلًا: موضوع الطب هو بدن الإنسان، موضوع النحو هو الكلمة، موضوع الفقه: الفقه يبحث في أفعال العباد. أفعال العباد، من أي حيثيّة؟ من حيث الأحكام الشرعية المتعلقة بها.

ولهذا لا يدخل في علم الفقه بالمعنى الاصطلاحي الخاص، لا يدخل فيه ما يتعلق بعلوم العقيدة -وإن سمّاها بعض العلماء سموها الفقه الأكبر- لكنها بالمعنى الاصطلاحي الخاص لا تدخل، وهذا اصطلاح وليس المعنى الشرعي الذي ورد على لسان الشرع، وإنما هو ماذا؟ إصطلاح .

فضل علم الفقه

نقول يدل على فضل علم الفقه:

١) أولًا: النصوص الشرعية التي وردت في فضل العلم الشرعي، كل نص ورد في فضل العلم الشرعي فيندرج فيه الفقه بالمعنى الخاص؛ لأنّ الفقه بالمعنى الخاص علم شرعي، طبعًا الفقه بالمعنى الخاص قلنا ما يتعلق أفعال العباد -مثلًا معرفة أحكام الصلاة والزكاة والصيام والحج والمعاملات المالية والنكاح والطلاق والجنايات والخصومات والأقضية- هذا كله يتعلق بماذا؟ بالفقه بالمعنى الخاص .

فكل دليل ورد في الكتاب والسنة يتعلق بفضل العلم الشرعي فهو دليل على فضل الفقه.

٢) وهناك فضل خاص بعلم الفقه، كل علم من العلوم الشرعية له فضل يختّص به، وميزة يتميز بها. فالفقه بالمعنى الاصطلاحي الخاص يقول الإمام ابن الجوزي رحمه الله: (أعظم دليل على فضيلة الشيء: النظر إلى ثمرته ومن تأمل ثمرة الفقه علم أنه أفضل العلوم).

ما معنى هذا الكلام؟ معنى هذا الكلام: إذا نظرت إلى ثمرة الفقه وواقع الناس اليوم - والآن وواقع الناس أمس و قبل اليوم - تجد أنّ حاجة الناس إلى المسائل الفقهية هي أكثر احتياجاتهم من علماء الشريعة، يعني إذا تصدرت لإفتاء الناس وتدريسهم، وبذلت نفسك لتعليم الناس فسوف تجد ٩٩,٩% من أسئلة الناس تتعلق بأي علم؟ الفقه!

إذًا أكثر احتياج الناس يتعلق بعلم الفقه، نحن لا نقول أعظم احتياج الناس، فإنّ أعظم ما يحتاجه الناس هو تصحيح عقائدهم، وإخلاص التوحيد لله عز وجل، ولكن من جهة الكثرة فإنّ الناس ٩٩% من أسئلتهم تتعلق بماذا؟ (حذفنا ٠,٩% احتياطًا خروجًا من الخلاف).

طيب، نقول أكثر احتياج الناس هو مسائل الفقه، تجد هذا يسألك عن الصلاة صح وإلّا لا؟ وهذا يسال عن الزكاة، وذاك يسال عن الحج، والرابع يسأل عن الطلاق، والخامس خصومة بين الزوجين، بأيّ علم سيقضى فيها؟ الآن القاضي لما يقضي بين الناس بأي علم يقضي بينهم؟ بعلم مصطلح الحديث؟ ولا بعلم أصول التفسير؟ ولا بعلم النحو؟ إنما يقضي بينهم بعلم الفقه؛ لأن خصومات الناس هي مسائل تتعلق بعلم الفقه؛ البيع والشراء والإيجار والنكاح والطلاق والخلع وحتى الجنايات، كل هذه ترجع إلى علم الفقه.

ومع هذه الأهمية العظيمة لعلم الفقه فإنّ كثيرا من طلبة العلم قد قصروا في تعلم الفقه، ولهذا لو عملت إحصائية طلبة العلم تقول منكم درس متنًا في النحو؟ تلاقي الأكثرية يقول لك نعم. من منكم درس متنًا في مصطلح الحديث؟ ترى الأكثرية يقول درسنا. من منكم درس متنًا في أصول الفقه؟ قالوا درسنا الورقات. من منكم درس متنًا في الفقه؟ قالوا وقفنا عند كتاب الجنائز أو كتاب الزكاة، أو المجتهد منهم انتهى من كتاب الحج. لكن تجد -وأنا أقول هذا بين طلبة العلم وليس بين عامّة الناس- في كليات الشريعة لو عملت إحصائية من درس متنًا في الفقه يشمل جميع أبواب الفقه، ستجد أنّ الجواب أن هؤلاء الناس أقلية، مع أن هذا العلم عظيم وجليل، فلابد من العناية به .

استمداد علم الفقه

نتقل بعد ذلك إلى استمداد علم الفقه، طبعًا استمداد علم الفقه هذه لم أذكرها هنا، لماذا؟ لأن استمداد علم الفقه هذا يرجع إلى علم أصول الفقه؛ بالتفصيل بيَّن علم الأصول أنه يُستمد من الكتاب والسنة والإجماع إلى آخره .

حكم تعلم الفقه

أما حكم تعلم الفقه، فنقول مسائل علم الفقه على نوعين:

١- منها مسائل يجب تعلمها على كل مسلم، فرض عين على كل مسلم: معرفة صفة الصلاة هذه من مسائل الفقه، باب صفة الصلاة، أي كتاب فقه تجد فيه باب صفة الصلاة، تعلم صفة الصلاة ما حكمه؟ فرض عين على كل مسلم؛ يأثم الإنسان لو لم يتعلم صفة الصلاة. كذلك معرفة صفة الوضوء، هذا أيضًا فرض عين على كل مسلم .

٢- هناك أشياء تعلّمها ليس من فروض الأعيان على جميع المكلفين، وإنّما هو من فروض الكفايات، لكنه قد يتعين في حق بعض الناس، فمثلًا زكاة الأسهم، ما حكم تعلم هذه المسألة؟ نقول هذا من فروض الكفايات. وأمّا الشخص الذي يحتاج إلى هذه المسألة فيجب عليه أن يتعلم هذه المسألة إمّا تقليدًا إن كان من أهل التقليد، أو اجتهادًا إن كان من أهل الاجتهاد .

هذا ما يتعلق بمسألة التعريف الاجمالي بعلم الفقه، وبإذن الله عز وجل في الدرس القادم نبدأ في ما يتعلق بمراحل علم الفقه. وهذا يعني موجز عن فضل الفقه، ومن أراد الاستزادة يرجع إلى كتب كثيرة منها: الفقيه والمتفقه .

نسأل الله سبحانه وتعالى باسمه الأعظم أن يجعل هذا العلم علم نافعًا، ولوجهه خالصًا. لكن قبل الختام ممكن أطرح عليكم ثلاثة أسئلة، أسئلة الثلاثية:

~ معرفة إعراب قول الشاعر - مطلع معلقة امرؤ القيس - قفا نبكي من ذكرى حبيب ومنزل، معرفة إعراب هذا البيت يدخل في الفقه وإلّا لا؟ يدخل في الفقه بالمعنى اللغوي، يدخل في الفقه بالمعنى الشرعي؟ لا، الاصطلاحي؟ لا

~ طيب، معرفة إعراب قول الله عز وجل -مثلًا-﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ هذا يدخل في الفقه وإلّا لا؟ بالمعنى اللغوي يدخل، وبالمعنى الشرعي؟ يدخل، وبالمعنى الاصطلاحي؟ قد يدخل إذا انبنت عليه المسألة الفقهية.

~ طيب، معرفة أن التشهد الأول من واجبات الصلاة، هل هذا يدخل في معنى الفقه؟ بالمعنى اللغوي يدخل، بالمعنى الشرعي يدخل، وبالمعنى الاصطلاحي كذلك يدخل.

~ طيب، خلينا نأخذ حديث عن النبي عليه الصلاة والسلام، قول النبي ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين» هل هذا يدخل في الفضل العام للعلم الشرعي، ولا في الفضل الخاص بعلم الفقه؟ هذا يدخل في الفضل العام؛ لأنّ الفقه هنا لا يراد به خصوص علم الفقه.

هذا ما يتعلق بدرس اليوم، ونسأل الله عزّ وجل التوفيق والسداد، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه .

المقطع الثالث والرابع

مراحل الفقه

فقد مرَّ معنا في الدرس الماضي ما يتعلق بتعريف الفقه لغةً واصطلاحاً. وعرفنا ذلك بشكل موجز، واليوم بإذن الله -عزَّ وجل- نبدأ في هذا الدرس فيما يتعلق بمراحل الفقه.

الذين تكلموا عن مراحل الفقه، سواء من كَتَب في مدخل إلى الفقه الإسلامي والكتب في هذا كثيرة، يعني هناك من كتب بعنوان: مدخل إلى الفقه الإسلامي، هناك من كتب بعنوان: مدخل إلى الشريعة الإسلامية، هناك من كتب بعنوان: تاريخ الفقه الإسلامي، هناك من كتب بعنوان: تاريخ التشريع.

وجُلّ هذه الكتب تدور في فلك واحد، واختلفت طريقة تقسيمهم لتاريخ الفقه، طبعا بعضهم يسميه (تاريخ التشريع)، وبعضهم يسميه (تاريخ الفقه)، والأدّق أنّ التشريع يختص بزمن النبوة، وليس إطلاقاً يشمل جميع مراحل الفقه.

لكن هذه الطرائق متّنوعة، منهم من جعل مثلاً: الفقه في زمن النبوة، الفقه في زمن الصحابة، الفقه في زمن التابعين، الفقه في زمن العباسيين، الفقه في زمن المذاهب.

يعني تقاسيم متنوعة، وهناك من قسمها أربعة وقال: مرحلة الطفولة، ومرحلة الشباب، ومرحلة الكهولة، ومرحلة الشيخوخة. وبعضهم جعل مثلاً: مرحلة الجمود والتقليد، وبعدها مرحلة النهضة الحديثة وغيرها.

ولكنّي رأيتُ أن نسلك في هذا التقسيم مسلكًا تاريخيًّا توصيفيًّا من غير حكم. يعني : دون أن نحكم نقول هذه مرحلة جمود أو هذه مرحلة نهضة... ثمّ بعد ذلك في التفصيل، سنفصل بعض الأشياء.

مراحل الفقه
مرحلة التشريع (إلى ١١هـ)
مرحلة الفقه قبل المذاهب (إلى ١٠٠هـ تقريبا)
مرحلة المذاهب الفقهية (إلى ١٣٠٠هـ تقريبا)
العصر الحاضر (من ١٣٠٠هـ تقريبا)

١) المرحلة الأولى: هي مرحلة التشريع (إلى ١١هـ) وهي مختصة بزمن النبوة وبعد وفاة النبي ﷺ انقطع التشريع؛ المرحلة التي من بعد ذلك، هي من مراحل الفقه وليست مرحلة تشريع، بمعنى أنّ التشريع انقطع، ما عاد هناك وحي ينزل.

٢) المرحلة الثانية: مرحلة الفقه قبل المذاهب الفقهية (إلى ١٠٠هـ تقريبا) وهي تشمل الفقه في زمن الصحابة، والفقه في زمن التابعين، والفقه في بداية زمن أتباع التابعين، قبل أن تستقر أو تتّضح المدارس الفقهية أو المذاهب الفقهية.

٣) المرحلة الثالثة: هي مرحلة المذاهب الفقهية (إلى ١٣٠٠هـ تقريبا) كلّها من أولها إلى العصر الحاضر.

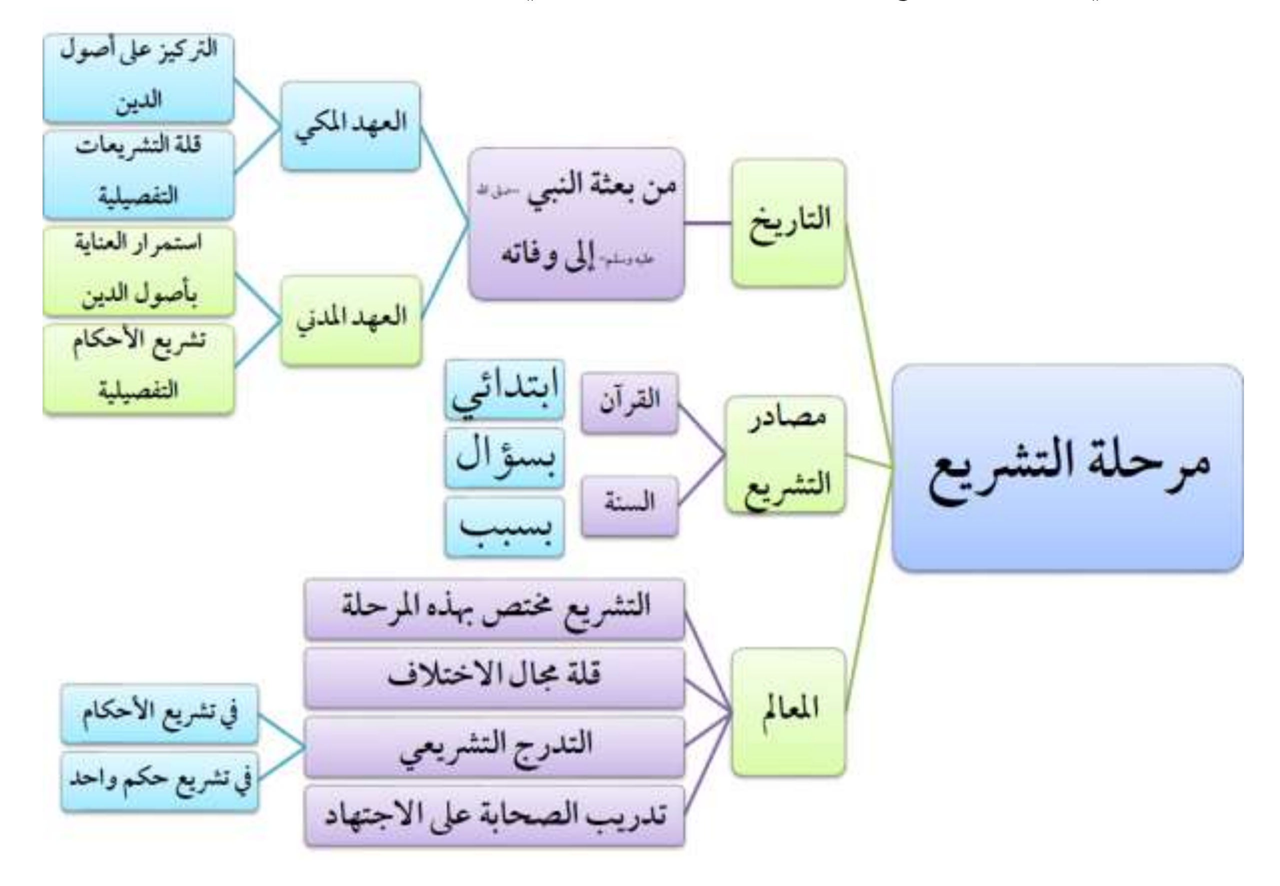
٤) والمرحلة الأخيرة (الرابعة): خصصتها فيما يتعلق بالعصر الحاضر: وهو قرابة الألف و ثلاث مئة وما قبلها أو قبلها بقليل وبعدها بقليل.

وهذه التواريخ كلّها تقريبية ما عدا المرحلة الأولى وهي مرحلة التشريع فإنّ التاريخ فيها تحديداً؛ لأنّك لا تستطيع أن تقول في اليوم الفلاني تشكلت المذاهب الفقهية، يعني ليس كما تتكلم عن التاريخ السياسي فتقول في اليوم الفلاني تولّى الخليفة مثلاً عبد الملك بن مروان أو فلان أو فلان، لكن في المذاهب الفقهية أنت لا تستطيع أن تقول في السنة الفلانية صدر مرسوم بتشكل المذاهب الفقهية، فلهذا التواريخ هنا هي تواريخ تقريبية وليست تحديدية، فإنّ ظهور المذاهب ونشأة المذاهب وتشكل المذاهب واستقرارها ظهر شيئاً فشيئاً.

مرحلة التشريع

التاريخ

نبدأ بالمرحلة الأولى وهي مرحلة التشريع و تبدأ هذه المرحلة ببعثة النّبي ﷺ.



لمّا بُعث النبي ﷺ، ونزل عليه الوحي، وهذا من حكمة الله عز وجل فإنّ الله سبحانه وتعالى خلق الخلق وأنزل عليهم الشرائع، ولا يمكن أن يخلق الله عزّ وجل خلق ويتركهم من غير تشريع، فإنّ هذا من العبث الذي ينزه الله عز وجل عنه، فلهذا قال الله عزّ وجل ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾. فإنّ من يقول أنّه لم تنزل شرائع على هؤلاء الناس، فإنّ هذا ممّن لم يقدر الله عزّوجل حق قدره، ولهذا قال الله ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ﴾.

طيب، كما قلت لكم بدأت من بعثة النبي ﷺ وانتهت هذه المرحلة بوفاة المصطفى ﷺ لأنّ التشريع انقطع عند ذلك. هذه المرحلة وهي مرحلة التشريع تمر بمرحلتين أساسيتين: المرحلة الأولى: العهد المكي. المرحلة الثانية: العهد المدني.

١- مرحلة العهد المكي: كان التشريع فيها يتركز على أصول الدين، ولماذا نقول تركّز على أصول الدين؟ لا نقول اقتصر، يعني في مرحلة العهد المكي هل التشريع مقتصر على أصول الدين؟ لا، هناك تشريعات تتعلق بالعمل؛ يعني هناك من أهل العلم من يرى أنّ الصلاة فُرضت في مكة، بل حتى من أوائل البعثة، كذلك مثلاً تحريم أكل ما لم يُذكر اسم الله عليه فإنه نزل أيضاً بمكة.

وأمّا التشريعات التفصيلية فقد نزل شيء منها ولكنّه لم يكن كثيراً، وإنّما هو تشريعات قليلة.

٢- مرحلة العهد المدني: أمّا في (العهد المدني) فقد استمرت عناية التشريع الإلهي بأصول الدين، فإنّ أصول الدين يحتاج إليها الناس في كل عهد، ولكن بدأت التشريعات التفصيلية وكثرت بعد بعثة النبي ﷺ إلى المدينة.

ومن أراد أن يقف على تفاصيل ذلك: يعني مثلاً متى شُرِع الأذان، متى شُرِع الصيام، متى شُرِع الجهاد، التفصيل التاريخي والتسلسل التاريخي والمرحلية التاريخية التي تتعلق مثلاً بالنكاح وبالطلاق وبالأحوال الشخصية، يرجع إلى كتاب (الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي) لمحمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، وهو كتاب جيّد من ناحية الرصد والجمع، وإن كان هذا الكتاب من ناحية تحليل بعض الأحداث والحكم عليها فيه بعض المآخذ التي لا تخفى على طالب العلم المتمرس.

مصادر التشريع في مرحلة بعثة النبي

ما هي مصادر التشريع في هذه المرحلة؟ نقول: مصادر التشريع في هذه المرحلة هي القرآن والسنة. طيب أين الإجماع؟ أين القياس؟

بالنسبة للقرآن والسنة: تارة ينزل ابتداءً. وتارة ينزل بسؤال؛ مثلا يأتي شخص فيسأل، مثل الظهار نزل بسبب سؤال. وتارة يكون بسبب حادثة معيّنة فينزل التشريع الإسلامي لبيان الحكم في هذه الحادثة، وكان التشريع مقتصراً على القرآن والسنة.

طيب أين الإجماع؟ الإجماع في زمن النبي ﷺ، إذا حصل وتُصُوِّر حصول الإجماع في زمن النبوة، فإن أقرّه النبي ﷺ فهو سنّة، وإنّما اكتسب حجيته من إقرار النبي ﷺ، ولهذا العلماء رحمهم الله تعالى يُعرّفون في أصول الفقه الإجماع بأنّه اتّفاق علماء العصر بعد النبي ﷺ على حكم شرعي.

طيب أين القياس؟ هل كان في هذه المرحلة قياس؟ النبي عليه الصلاة والسلام ما كان يقيس؟ طبعا اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في أصول الفقه، هل النبي ﷺ يحكم بالاجتهاد أو لا يحكم إلاّ بتوقيف ووحي، هذا خلاف مذكور في أصول الفقه. وعلى كلا القولين فاجتهاده ﷺ راجع إلى السنة، فهو يرجع إلى دليل السنة النبوية.

بعض المعالم التي تتعلق بمرحلة التشريع

ننتقل بعد ذلك إلى بعض المعالم (المسائل) المهمة التي تتعلق بمرحلة التشريع:

١. التشريع مختص بهذه المرحلة: أن التشريع بمعنى إنشاء الأحكام الشرعية مختص بهذه المرحلة، انقطع التشريع بعد وفاة النبي ﷺ.

طيب الصحابة ما كان لهم اجتهادات ما كانوا يُفتون؟ طيب بعد وفاته عليه الصلاة والسلام.. التابعون؟ هذا تشريع أم ليس بتشريع؟ لا يسمّى تشريعاً، إنّما هو اجتهاد. ولهذا يسمّى بالفقه.

طيب الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، قول الصحابي حجة أم لا ؟ قول الصحابي حجة. طيب هل معنى هذا أنّ الصحابي يُشرّع ؟ الصحابي لا يُشرع، التشريع لا يكون إلاّ من عند الله عزّ وجل ومن الرسول عليه الصلاة والسلام، وأمّا الصحابة رضوان الله تعالى عليهم فحتى على القول بأنّ قول الصحابي حجّة وهو مذهب جماهير العلماء -أنّ قول الصحابي حجة- لكن لا يراد بذلك أنّ الصحابي يمكن أن يُشرّع من تلقاء نفسه، وإنّما نقول: قول الصحابي حجة لأنّه أفهَمُ للكتاب والسنة .

ولهذا التلمساني رحمه الله وغيره قسم الأدلة إلى نوعين:

١- النوع الأول: أدلة بذاتها مُنشئة للأحكام وهي الكتاب والسنة، فإنّ هذه أدلة مُنشئة للأحكام.
٢- النوع الثاني: أدلة متضمنة للدليل كقول الصحابي والإجماع.

كذلك الإجماع، الإجماع لا يُنشئ حُكماً ولا يُشرّع حكماً وإنّما يُظهِر الحكم. يعني هل يمكن علماء العصر يجتمعون فيقولون والله المسألة الفلانية دعونا نقول أنّها حلال، ما رأيكم، خلينا نقول حلال يسروا على الناس ولا تعسروا؟ قالوا: اتفقنا، من غير دليل من كتاب الله عز وجل ولا سنة رسوله؟؟ أو يحرموا على الناس مسألة، هل هذا ممكن؟ غير ممكن. لكن إذا أجمع العلماء عرفنا أنّ هذا الإجماع هو الشرع الذي نزل به الله عزّ وجل، لماذا؟

~ لأنّهم أفهم لكتاب الله عز وجل وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام.
~ ولأنّ دليل السنة دلّنا على عصمتهم من الاجتماع على الخطأ، وكذلك دليل القرآن في قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ﴾، والأدلة على هذا كثيرة.

٢. قلة مجال الإختلاف: في هذا الزمن أيضاً قلّ مجال الاختلاف. لم يظهر الاختلاف الفقهي بشكل كبير وظاهر، لا نقول لم يظهر؛ الاختلاف الفقهي ظهر في هذا العصر، ولهذا الصحابة رضوان الله تعالى عليهم اختلفوا في زمن النبي ﷺ في بعض الحوادث، مثل قصة بني قريظة، «لا يصلّين أحدٌ منكم العصر إلا في بني قريظة» هذه في زمن النبوة، واختلف الصحابة رضوان الله عليهم اختلافاً فقهياً في فهم هذا النص، من الصحابة من قال: لا نصلي أبداً إلا إذا وصلنا بني قريظة. ومنهم من قال: لا، نصلي في الطريق لأن المقصود في هذا النص الإسراع والتعجيل، والنّبي -عليه الصلاة والسلام- لم يعنّف أيًا من الطائفتين، وهذا اجتهاد حصل في زمن النبوة.

لكن لماذا قلّ مجال الاختلاف؟ لأنّ الصحابة رضوان الله عليهم إذا اختلفوا في مسألة رجعوا إلى النبي ﷺ فانتهى الخلاف، طبعا في حق من يمكنه أن يرجع.

لكن هناك من اجتهد، مثلاً لمّا بعث النبي ﷺ معاذاً إلى اليمن، بعثه قاضيًا قال: بِمَ تحكم؟ قال: أحكم بكتاب الله قال: فإن لم تجد في كتاب الله؟ قال فبسنّة رسول الله ﷺ قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو. على كل حال السند في هذا الحديث أو الخبر فيه مقال، ولكن المقصود أنّ النبي ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن وبعث الصحابة رضوان الله تعالى عليهم وكانوا يجتهدون في هذه الأحوال لأنّه في بعض الوقائع قد لا يجد فيها نصاً ولا يحفظ فيها نصاً عن النبي عليه الصلاة والسلام ولا في وسائل اتصال مباشرة، الواقعة قد تحتاج إلى حكم في هذا اليوم أو في لحظة، ولم يكن هناك وسيلة للتواصل كما هو موجود في العصر الحاضر.

٣. التدرج التشريعي: كذلك ممّا يتميز به هذا العصر، التّدرج التشريعي. والتدرج التشريعي انتهى، ما عاد في تدرج في التشريع؛ يعني بعض النّاس الآن يريد أن يتدرج في التشريع مع الناس يقول عن شخص حديث عهد بالإسلام دعوه يصلي صلاة واحدة فقط في اليوم، وبعد أسبوع نفرض عليه صلاتين!

التشريع انتهى، لا يمكن لإنسان اليوم أن يُرجِع النّاس إلى العهد المكي، فيُبيح لهم مثلاً شرب الخمر يقول نتدرج مع الناس. الناس والله الآن صار عندهم تساهل وكذا وضعف في الإيمان، دعونا نبدأ من الصفر، دعونا نقول للناس الآن ما في مشكلة الذي يريد أن يشرب خمر يشرب، ثمّ بعد سنتين نقول لهم لا تشربوا الخمر في أوقات الصلاة.

نقول هذا لا يمكن، لأنّ التشريع انقطع والشريعة الموجودة اليوم لا يمكن لأحد أن يزيد فيها ولا ينقص ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ ولكن من الممكن أن يتدرج الإنسان في تربية الناس على هذا التشريع الذي انتهى.

فمثلاً إذا جاء إنسان إلى مكتب دعوة الجاليات يريد أن يعلن إسلامه، ماذا تلقنه؟ قال النبي ﷺ لمعاذ: "إنّك تأتي قوماً أهل كتاب فليكن أول ما تخبرهم به شهادة أن لا إله إلا الله"، هناك تدرج في تبليغ هذا التشريع وفي تربية الناس على هذا التشريع، طيب جاءك هذا الرجل قال: أنا أريد أن أدخل في الإسلام، لقنته الشهادتين وقلت له تعال الآن لازم الختان، لازم نختنك أو لا يصحّ إسلامك، نقول هذا قد يسبب نفرة، قد يسبب إشكال. طيب هل معنى هذا نقول له اسمع ترى الختان لا يجب عليك - طبعا أصلاً الختان هل هو واجب على الرجل هذه أصلها مسألة خلافية، لكن بغض النظر عن هذا نحن نتكلم الآن عن واقع - هل ممكن نحن نتدرج معه في التشريع، نقول والله الختان ما هو واجب، بعد أسبوعين نقول تعال ترى أوجبنا عليك الختان! نحن لا نملك حق التشريع، التشريع مكتمل.

كذلك مثلاً المرأة تأتي وتريد أن تُسلم - وهذا يحصل أحياناً في مراكز إسلامية في الغرب أو في غير الغرب - تأتي تريد أن تسلم وزوجها كافر، يهودي أو نصراني أو ملحد، طيب هل يجوز للمرأة المسلمة أن تبقى تحت كافر؟ لا يجوز ذلك أبداً. طيب لمّا جاءت هذه المرأة قالت أنا أريد أن أسلم نقول أولا لكي تسلمي عليكِ أن تتركي زوجك، قالت أنا أحبّه

ومتعلقة به تعلقاً عظيماً، هل يصح إسلامها إذا لم تترك زوجها أم لا ما يصح؟ يصحّ إسلامها ولو بقيت والعياذ بالله معه. هذا الأمر (بقاؤها مع زوجها) هو من المحرمات ولا يجوز، لكن بقاء المرأة على أعظم منكرات الدنيا، يعني عندها كلّ منكرات الدنيا إلا أنّها تشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتصلي، هذا خير أم بقاؤها على الكفر؟ لا شكّ أنّ بقاءها على الكفر شرّ من كل الموبقات .

ولهذا مرّة ذهبتُ لزيارة شخص، فقال: عندنا والله الخادمة هندوسية لكن مقتنعة بالإسلام تمام القناعة، لكن المشكلة أنّها متعلقة بزوجها وعندها أولاد من زوجها وقلنا لها يجب أن تتركي زوجك. قلت يعني هي تريد أن تسلم، وأنتم قلتم لها لا إلاّ أن تتركي زوجك؟ قال: نعم قلنا لها لا، قلتُ: يا أخي اتقِ الله عز وجل ما يجوز هذا يجب أن تسلم.

الآن لو جاءت امرأة يعني بغية من البغايا تريد أن تعلن إسلامها، تدخل في الإسلام، تقول لها لا تسلمين حتى تتركي الزنى؟ هل هذا صحيح؟ أبداً، فبقاؤها لو بقيت على موبقات الدنيا كلها ودخلت في الإسلام، فإنّ هذا في مذهب أهل السنة والجماعة ينجيها من الخلود في النار.

لكن هل معنى هذا أنّنا نتدرج في التشريع، نقول والله عندك مهلة لمدة شهرين بعدها ستتغير الأحكام؟ لا، لابدّ أن نفرق بين هذا المقام وبين هذا المقام، وإنّما يقال لها إسلامك صحيح ولكن هذا الأمر محرم في شريعة الإسلام ويجب أن تتركي زوجك ولكن هذا لا يؤثر على صحة إسلامك، أمّا أن يقال للناس لا تسلموا، لأنّ هذا مدمن خمر لا تسلم، هذا من الخطأ.

طبعا التدرج في التشريع:

- منه تدّرج في تشريع الأحكام: فالنبي عليه الصلاة والسلام أول ما بعث أمر النّاس بتوحيد الله، ثم بعد ذلك فرضت الصلاة، ثم فرض الصيام، ثم فرضت غير ذلك من العبادات. هذا تدّرج في التشريع عموماً،
- عندنا تدرج في تشريع الحكم الواحد: تحريم الخمر مثلاً مرَّ بعدّة مراحل في التشريع، وجوب الجهاد في سبيل الله أيضا مرَّ بعدّة مراحل في نفس هذا الحكم في التشريع.

٤. تدريب الصحابة على الإجتهاد: كذلك من معالم هذا العصر أنّ النبي ﷺ درّب الصحابة وعلّمهم ورباهم على الفقه والفتوى والاجتهاد.

وقد ذكر بعضهم أنّ الصحابة الذين أفتوا في زمن النبي ﷺ بلغوا أربعة عشر صحابياً وهم (أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وعمار بن ياسر وحذيفة وزيد بن ثابت وأبو الدرداء وأبو موسى وأُبيّ بن كعب وعبادة ابن الصامت وابن مسعود)، هؤلاء الأربعة عشر صحابياً ذكر أنّهم أفتوا في زمن النبي ﷺ.

وقد ثبت أنه في زمن النبوة كان هناك من الصحابة من يُعرف بالفقه، ولهذا جاء في بعض الأحاديث (حديث العسيف) قال: "فسألت أهل العلم.. "- وفي صحيح مسلم أيضاً- فقال له فقهاء الأنصار، فدل على وجود من يوصف في الفقه والفتوى حتى في زمن النبي ﷺ.

هذا ما يتعلق بالزمن الأول وهو زمن التشريع، وقد عرفنا أنّه مرَّ بمرحلة التشريع المكي، ثم مرحلة العهد المدني.

بعد وفاة النبي ﷺ انقطع التشريع ولكن الاجتهاد والاستنباط في هذا التشريع والفتوى والفقه كان مستمراً، فكان الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- يستنبطون الأحكام من الكتاب ومن السنة، ويقيسون، وبرز عدد من الصحابة من فقهاء الصحابة، ولكن هؤلاء الصحابة رضوان الله تعالى عليهم تفاوتوا من جهة كثرة ما نقل عنهم في الفقه والفتوى.

وهنا مسألة ذكرها بعض العلماء وهي: هل الصحابة رضوان الله تعالى عليهم كلّهم فقهاء مجتهدون أو بعضهم دون بعض؟
الجواب في هذا أن يقال: إذا أردنا بالاجتهاد والفقه بمعنى القدرة على ذلك، يعني يعبر عنه أهل العلم أنّه فقيه بالقوة، أنّه عنده قدرة، الصحابة رضوان الله عليهم شهدوا التنزيل ولغتهم العربية لغة صحيحة وسليقة بالنسبة لهم، ولهذا ذهب بعض العلماء إلى أنّ:

~ الصحابة كلّهم من أهل الاجتهاد بالقوة لا بالفعل.
~ وأمّا من رويت عنه الفتوى وتصدى للفتوى أو للقضاء فليس جميع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم حصل منهم الإفتاء والقضاء.

المقطع الخامس و السادس والسابع

مرحلة الفقه قبل المذاهب

طبعا مرحلة ما قبل المذاهب تتمثل في عصر الصحابة، ثم عصر التابعين، ثم نتكلم أيضًا عن مصادر الفقه في هذه المرحلة.



عصر الصحابة

إذا أردت أن ترجع إلى فتاوى الصحابة، إلى فقه الصحابة، أين ترجع؟ أليس الكتب؟ يعني أنت تعرف الآن.. تريد أن تعرف فقه أبي حنيفة ترجع إلى كتب المذهب الحنفي، طيب إذا أردت أن ترجع إلى فقه الصحابة، نقول عندنا المصادر في هذا، عندنا مصادر مسندة مروية بالاسناد وعندنا مصادر غير مسندة.

١- المصادر المسندة: مثل مصنف عبد الرزاق الصنعاني، ومثل مصنف ابن أبي شيبة، وكذلك الأوسط لابن المنذر الذي يذكر بعض الأشياء بالإسناد من فقه الصحابة، وبعضها يُذكر من غير إسناد.

٢- وعندنا كتب غير مسندة وهي: كتب الفقه المقارن عمومًا، فإنك لو رجعت إلى المغني أو إلى المجموع أو إلى غيره من كتب الفقه المقارن أو فقه الخلاف، تجد نسبة الأقوال الفقهية.. يقول وذهب إلى هذا مثلًا ابن عمر وابن مسعود وغير ذلك من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم.

طيب هذا بالنسبة للفقه في زمن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم.

الصحابة الذين حفظت عنهم الفتوى مائة وثلاثون نفسًا، كما قرر ذلك الإمام ابن حزم رحمه الله تعالى، ونقله عنه الإمام ابن القيم في أعلام الموقعين، هؤلاء الصحابة مائة وثلاثون على ثلاثة مراتب:



١- المكثرون: وعددهم سبعة، وهؤلاء المكثرون من الفتوى من الصحابة، قال ابن حزم يمكن أن يُجمع من فتوى كل واحد منهم سفرٌ ضخم، يعني إذا أردت أن تجمع فتاوى عمر وأقضية عمر وآراء عمر ستجد أنها تجتمع في مجلد كبير، وكذلك علي وكذلك ابن مسعود وكذلك عائشة وكذلك زيد وابن عباس وابن عمر رضوان الله تعالى عليهم.

أمّا عمر بن الخطاب فهو أفقه الصحابة بعد أبي بكر، أبو بكر الصديق رضوان الله تعالى عليه هو أفقه الصحابة وأعلمهم على الإطلاق، وأعلم الصحابة على الإطلاق كما قرر هذا أهل العلم بل حُكِيَ عليه الإجماع أنّ أعلم الصحابة هو أبو بكر رضي الله تعالى عنه. ولكن أبي بكر الصديق رضوان الله عليه لم تطُل مدة خلافته، فقد كانت مدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر، فلم تطل مدة خلافة أبي بكر رضي الله تعالى عنه ومن أجل هذا لم يُنقل عنه كثير من الفتوى والفقه والقضاء، بخلاف عمر رضي الله تعالى عنه فإنّ خلافة عمر امتدت عشر سنوات وستة أشهر، فنُقل عنه كثير جدًا من الفتاوى والأقضية في عدد من المسائل.

وكذلك علي رضوان الله تعالى عليه فقد نُقل عنه الفقه، لماذا؟ لأنّه آخر الخلفاء موتًا، يعني الفقه الذي نُقل عن علي سواء من قبل أن يتولى الخلافة أو بعد أن تولى الخلافة فقد نُقل عنه فقه كثير.

وكذلك ابن مسعود رضي الله تعالى عنه، وابن مسعود صاحب مدرسة فقهية وصاحب مذهب فقهي له اتباع، كما ذَكَر هذا ابن المديني رحمه الله تعالى، فإنه ذكر أن الصحابة الذين كانت لهم مذاهب مقلدة، لها أرباب يقلدون - يعني أتباع، يتبعون هذا المذهب - هم ثلاثة من الصحابة، منهم عبد الله بن مسعود ومنهم زيد بن ثابت ومنهم عبد الله بن عباس، قال: "وكان لكل منهم أتباع في الفقه يدونون في علمهم وفتاويهم وفقههم".

وكما ذكرنا أنّ الصحابة الذين نُقلت عنهم الفتوى مئة وثلاثون، نُقلت عنهم، لا نتكلم عن الصحابة الذين أفتوا وإنّما الذين نُقلت عنهم الفتوى. المكثرون منهم أولهم عمر رضي الله تعالى عنه وكذلك علي بن أبي طالب وكذلك ابن مسعود.

وقلنا أنّ عبد الله بن مسعود كان له مذهب فقهي له أتباع، في أي بلد؟ في العراق في الكوفة، فإنّ مذهب ابن مسعود رضي الله تعالى عنه هو المذهب الموجود في الكوفة، عمر رضي الله عنه بعث ابن مسعود إلى العراق إلى الكوفة، وقال لأهل الكوفة: «تعلموا منه فوالله لقد آثرتكم به على نفسي». فكان رضوان الله تعالى عليه معلمًا ومفتيًا في الكوفة ونشأ

له طلاب ومدرسة فقهية ومذهب فقهي، وكان أهل الكوفة وأهل العراق على مذهب عبد الله بن مسعود رضوان الله تعالى عليه.

وهذا يدل على أنّ نشأة المذاهب الفقهية نشأة مبكرة وهي أمر طبيعي يعني أمر طبيعي لما يكون هناك إمام وأكثر النّاس كما تعلمون أكثر النّاس لا يبلغون في العلم مرتبة الإمامة ولا مرتبة العلماء، فمن الطبيعي جدًا أن الناس سيتحلقون حول هذا العالِم ويأخذوا بفتاويه، هذا أمر ليس مستنكرًا ولا مستغربًا، فهذا هو الأمر المتوقع والطبيعي أن يكون. فتلاميذ عبد الله بن مسعود رضوان الله تعالى عليه دونوا مذهبه، وكان يُفتي الناس وكان الناس يتبعون هذا المذهب.

وكذلك من المكثرين عائشة الصديقة بنت الصديق رضوان الله تعالى عليها، فقد كانت معلمة فقيهة مفتية، وانتفع بها خلق كثير، وتفقه عليها عدد من فقهاء التابعين، بل حتى الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يرجعون إليها في الفتوى في بعض المسائل.

كذلك من أئمة الفقه الذين كَثُرَ النقل عنهم في الفقه زيد بن ثابت، وقد نقلنا قبل قليل عن ابن المديني أنّ زيد بن ثابت كان له مذهب متبوع، في أي البلاد؟ في المدينة، المدينة النبوية في عصر الصحابة، كانت المدرسة الفقهية السائدة التي لها أتباع يَصدرون عنها هي مدرسة زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه. ولما توفي زيد صارت المدينة على مذهب عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمر كما نقل بعض أهل العلم كان يأخذ بمذهب زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه، وليس هذا الأخذ لمذهب زيد أخذ المقلد لقول المجتهد فلا شك أنهما من أئمة الاجتهاد رضي الله تعالى عنهما، ولكنه أخذ المجتهد بقولِ مجتهد آخر.

وكذلك من الصحابة المكثرين عبد الله بن عباس. وعبد الله بن عباس أيضًا كان له مذهب متبوع، في أي البلاد؟ في مكة، فإن أهل مكة في الحجاز، في مكة تحديدًا لأن الحجاز يشمل مكة والمدينة، ومكة كانت على مذهب عبد الله بن عباس، وكان أعيان الفقهاء في مكة بعد وفاته هم تلاميذه الذين تفقهوا على عبد الله بن عباس.

وكذلك عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمر، كان في أي البلاد؟ كان في المدينة.

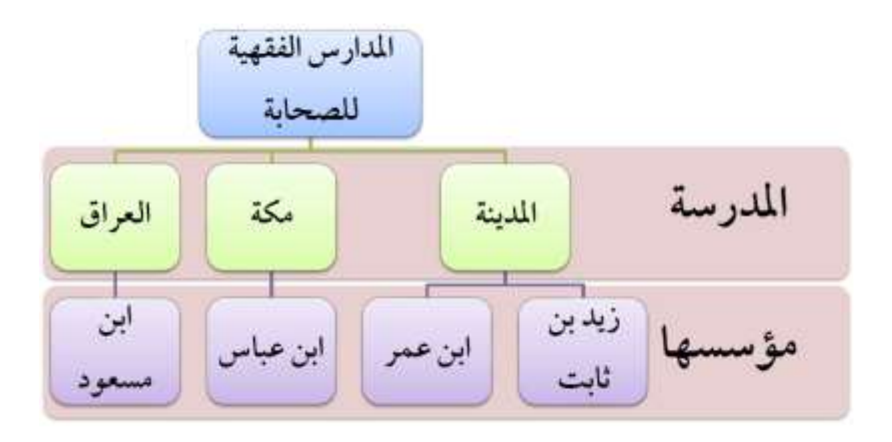
٢- المتوسطون: فيمكن أن تُجمع من فتاوي كل واحد منهم جزء صغير جدًا، كما قرر ذلك ابن حزم، وتبعه على هذا ابن القيم في أعلام الموقعين، وهم أبو بكر وعثمان وأم سلمة وأنس بن مالك وأبو سعيد وأبو هريرة وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وأبو موسى الأشعري وجابر بن عبد الله ومعاذ. ومعاذ ذُكر في المتوسطيين من جهة ماذا؟ أنه لم يُنقل عنه فتاوى كثيرة كالطبقة الأولى، وأما من جهة العلم وتقديمه في العلم فلا شك أنه كان من أعلم الأمة بالحلال والحرام. معاذ بن جبل رضوان الله عليه وردت أحاديث وإن كان أهل العلم يتكلمون هل هي ثابتة أو لا، ولكن معاذ بن جبل كان أعلم الأمة بالحلال والحرام. طيب كان فقيهًا عالمًا وكان في الشام، طبعًا ذهب إلى اليمن، وكذلك كان له تلاميذ في بلاد الشام، وكذلك سعد بن أبي وقاص وسلمان الفارسي رضي الله عنهم.

٣- المقلون: فعدد كبير، بقية المائة والثلاثين، يعني تقريبًا مائة وعشرة من المقلين، وهؤلاء المقلون يمكن أن تُجمع فتاويهم جميعًا في جزء صغير، منهم: أبو الدرداء والحسن والحسين وأبي بن كعب وأبو أيوب وأسماء وزيد بن أرقم وثوبان وبُرَيدة وغيرهم رضوان الله تعالى عليهم.

وبالمناسبة نحن ذكرنا من المكثرين زيد ومن المتوسطين معاذ بن جبل، عمر رضي الله عنه يقول: "من أراد الفرائض فليأتِ زيد بن ثابت - زيد من فقهاء الصحابة ولكن كان تخصصه الدقيق الفرائض، أفرضكم زيد وناهيك بها -، ومن أراد الفقه فليأتِ معاذ بن جبل، ومن أراد المال فليأتِني".

المدارس الفقهية للصحابة

طيب ننتقل إلى الصفحة التي بعدها والتي تتعلق بالمدارس الفقهية.



نحن ذكرنا في السابق الصحابة، وهؤلاء الصحابة الذين ذكروا ليس جميعهم كان له مدرسة فقهية لها أتباع يسيرون عليها، لكن المدارس الفقهية التي تشكلت في زمن الصحابة هي ثلاث مدارس: المدرسة الاولى مدرسة المدينة، والثانية مدرسة مكة، والثالثة مدرسة العراق وتتركز في الكوفة .

ابن القيم رحمه الله تعالى يقول في أعلام الموقعين: «الفقه والعلم انتشر في الأمة عن أصحاب ابن مسعود وأصحاب زيد بن ثابت وأصحاب عبد الله بن عمر وأصحاب عبد الله بن عباس»، المدرسة الفقهية في المدينة هي مدرسة زيد بن ثابت ثم عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنه، ابن جرير الطبري يقول: «قيل أن ابن عمر وجماعة ممن عاش بعد زيد بن ثابت في المدينة، إنما كانوا يُفتون بمذهب زيد بن ثابت، وما كانوا أخذوا عنه مما لم يكونوا حفظوا من رسول الله ﷺ فيه قولًا»، ومالك يقول: «كان إمام الناس بالمدينة بعد عمر زيد بن ثابت، وكان إمام الناس بعده عبد الله بن عمر»، وناهيك بهذا الكلام فإن الامام مالك هو فقيه أهل المدينة، إمام دار الهجرة رضي الله تعالى عنه ورحمه.

إذن هذه المدارس الفقهية في زمن الصحابة وقد سبقَ التعليق عليها، زيد بن ثابت وابن عمر في المدينة، وابن عباس في مكة، وابن مسعود في العراق وتحديدًا في الكوفة.

المدارس الفقهية في زمن التابعين



في زمن التابعين استمر الفقه الاسلامي، وطُلّاب هؤلاء الصحابة رضوان الله تعالى عليهم كانوا من الفقهاء من الأئمة ومن المجتهدين الذين أفتوا. وأبرز المدارس الفقهية في زمن التابعين هي مدرسة المدينة ومكة والبصرة والكوفة.

- المدرسة المدنية ظهر فيها في زمن التابعين الفقهاء السبعة، وهؤلاء من التابعين، ومن هم الفقهاء السبعة؟

إذا قيل من في الفقه سبعة أبحر   روايتهم ليست عن العلم خارجه

فقل هم عبيد الله عروة قاسم   سعيد أبو بكر سليمان خارجه

عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، وعروة بن الزبير، القاسم بن محمد بن أبي بكر، سعيد بن المسيب، أبو بكر بن حزم، سليمان بن يسار، خارجه بن زيد.

وكذلك كان في المدينة سالم، أبوه هو أحد مؤسسي المدرسة الفقهية، سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وكذلك نافع، نافع هذا مولى ابن عمر، وأخذ عنه الإمام مالك وصارت السلسلة الذهبية، السلسلة الذهبية، أصح ما يُروى عن ابن عمر هو ما يروى من طريق مالك عن نافع عن ابن عمر.

كذلك من الفقهاء في المدينة الزُهري، محمد بن عبيد الله بن شهاب الزُهري، من التابعين.

- وأما في مكة فأكثرهم من طلاب ابن عباس: عطاء وطاووس بن كيسان ومجاهد بن جبر وعكرمة رحمهم الله تعالى أجمعين.
- وأما في البصرة فظهر في زمن التابعين من الفقهاء: الحسن بن يسار البصري ومحمد بن سيرين وأبو قلابة وقتادة بن دعامة السدوسي.

- وكذلك في الكوفة: علقمة تلميذ ابن مسعود، وأخذ عنه إبراهيم النخعي، وأخذ عن إبراهيم حمّاد شيخ أبي حنيفة، حمّاد بن زيد، وأخذ عن حمّاد أبي حنيفة، وهذه سلسلة المذهب الحنفي؛ أبو حنيفة عن حمّاد عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود.

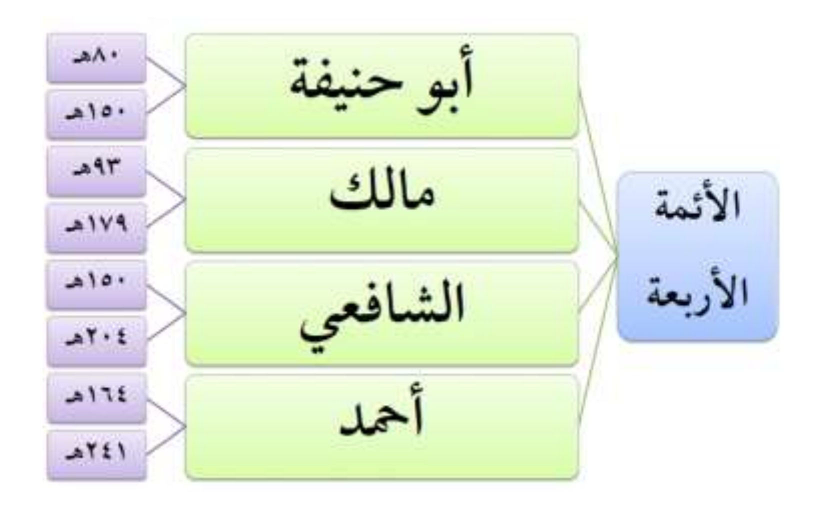
  وكذلك في الكوفة كان من طلاب ابن مسعود: مسروق وعبيدة السلماني الذي أخذ عن ابن مسعود وأخذ كذلك عن علي رضي الله تعالى عنه، لأن عليًّا رضي الله عنه أيضًا انتشر فقهه في الكوفة، لأنه لمّا تولى الخلافة انتقل إلى الكوفة، فأخذ أهل الكوفة عنه.

  وكذلك من الفقهاء في الكوفة شُريح القاضي، رحمهم الله تعالى أجمعين.

هذا الكلام كله يتعلق بالفقه في مرحلة ما قبل المذاهب الفقهية الاربعة.

المقطع الثامن والتاسع والعاشر

مرحلة الأئمة الأربعة



بعد ذلك ننتقل إلى مرحلة الأئمة الأربعة، ونحن الآن في أيِّ الأزمنة؟ الصَّحابة أم التَّابعين أم أتباع التَّابعين؟ .. الأئمة الأربعة، هل هم من التابعين، أم من أتباع التابعين؟ أم فيهم مَن هو مِن التابعين وفيهم من هو من أتباع التَّابعين؟

الإمام أبو حنيفة - رحمه الله - قيل إنَّه رأى أنس بن مالك، ولهذا اختلف: هل هو من التابعين أو من أتباع التابعين، وسيأتي ذكر ذلك.

الإمام أبو حنيفة - رحمه الله - وُلِد في سنة (٨٠هـ)، وقد قيل إنّه رأى أنس بن مالك، وأنس بن مالك توفي سنة (٩٣هـ)، فقيل إنَّه رأى أنس بن مالك، وتوفي الإمام أبو حنيفة في سنة (١٥٠هـ).

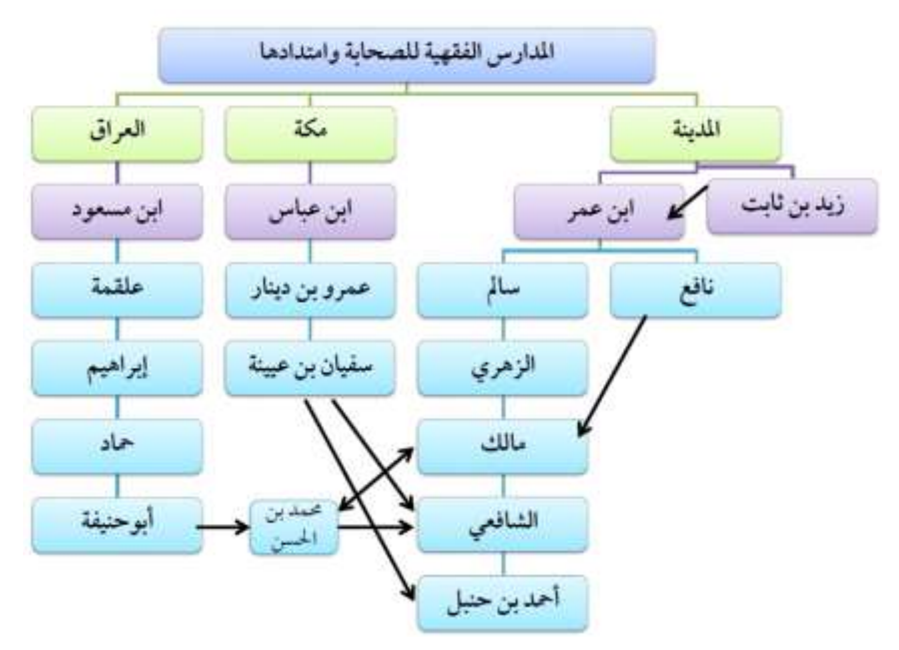
وفي هذه السنة نفسها حصل حدث آخر يتعلق بالأئمة الأربعة؛ ولادة الشَّافعي، حتى قيل إنَّه وُلِد في نفس اليوم، - ولكن هذا قيل؛بصيغة التَّمريض-، لكنه وُلِد في نفس السَّنة.

والثاني من الأئمة الأربعة هو الإمام مالك، وقد وُلِد في سنة (٩٣هـ)، السنة التي توفي فيها أنس بن مالك. إذًا، مالك بن أنس بن مالك وُلِد في السَّنة التي توفي فيها أنس بن مالك، ليس والدًا لمالك بن أنس؛ إنَّما هو مالك بن أنس بن أبي عامر الأصبحي، لا ينتسب إلى أنس بن مالك الصَّحابي.

وتوفي الإمام مالك في سنة (١٧٩هـ) ، ووُلِد الإمام الشَّافعي - كما قلنا - في سنة (١٥٠هـ)، السَّنة التي تُوفي فيها الإمام أبو حنيفة رحمه الله. وتوفي الإمام الشافعي في سنة (٢٠٤هـ)، ثم الإمام أحمد وُلد في سنة (١٦٤هـ)، وتوفي في سنة (٢٤١هـ).

قبل الدخول في تفاصيل هذه المذاهب، نريد أن نبيّن الامتداد التاريخي ونسب هذه المدارس، النَّسَب العلمي لهذه المذاهب الأربعة، النسب والإسناد لهؤلاء الأئمة الأربعة.

نحن قد سبق أن ذكرنا أن المدارس الفقهية للصحابة هي مدرسة المدينة ومكة والعراق.



فمدرسة المدينة: عندنا فيها زيد بن ثابت وابن عمر. ابن عمر أخذ عن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه، وابن عمر أخذ عنه جمعٌ -سبق ذكر بعضهم-، منهم: نافع وسالم. والإمام مالك رحمه الله أخذ عن الزُّهري عن سالم عن ابن عمر- وهذا من أصح الأسانيد أيضًا عن ابن عمر-، وكذلك أخذ عن نافع عن ابن عمر عاليًا. فالامام مالك رحمه الله أخذ عن نافع عن ابن عمر، وهذا كما قلنا هو من أصحِ الأسانيد، بل قيل: إنه أصحّ الأسانيد على الإطلاق.

والإمام الشافعي أخذ عن مالك، وقرأ عليه الموطأ، وقال له الإمام مالك، لما جاء الإمام الشافعي وحفظ الموطأ وقرأه على الإمام مالك أوصاه بوصية وقال: "يا بني إنِّي أرى أنَّ الله قد قذف في قلبك نورًا فلا تطفئه بظلمة المعصية". الإمام الشافعي تفقَّه على مالك.

والإمام أحمد أخذ عن الشَّافعي. طبعًا الإمام أحمد لا نستطيع أن نجعله من تلاميذ الشَّافعي بمعنى التَّلمذة المحضة، نعم استفاد من الشَّافعي وأخذ عنه الفقه، وكذلك استفاد منه الشَّافعي رحمه الله، أخذ عنه الحديث واستفاد منه. وبهذا نلحظ الإمتداد. إذًا، هذه مدرسة مالك وعرفنا امتدادها.

نأتي لمدرسة مكة ومدرسة العراق. مدرسة مكة: إمامُها هو عبد الله بن عباس، أخذ عنه عمرو بن دينار، وأخذ عن عمروٍ بن دينار سفيان بن عيينة، وهو من الفقهاء، وسيأتي معنا أنه صاحبُ مذهب متبوع - سفيان بن عيينة هذا من أصحاب المذاهب المتبوعة التي اندرست-. والإمام الشَّافعي أخذ عن سفيان بن عيينة، وكذلك الإمام أحمد أخذ عن سفيان بن عيننة، فحصل لهما تحصيلُ فقه أهل مكة، بالنسبة للإمام الشَّافعي والإمام أحمد رحمهما الله تعالى.

بالنسبة لفقه أهل العراق أو أهل الكوفة: كما قلنا يرجع إلى فقه ابن مسعود، وكذلك إلى فقه علي رضي الله تعالى عنه. وأخذ عن ابن مسعود علْقمة، وأخذ عن علْقمة إبراهيم، وأخذ عن إبراهيم حمَّاد، وأخذ عن حمَّاد أبو حنيفة.

لاحظْ أنَّ المدارس الفقهية الأربعة ستتداخل.

بالمناسبة العلماء يقولون: مذهب أبي حنيفة مذهب جماعي، تأسيسه تأسيسٌ جماعي، لا يقتصر فقط على فقه أبي حنيفة؛ بل هو مجموع فقه أبي حنيفة مع فقه محمد بن حسن الشيباني مع فقه أبي يوسف، وسنأتي إلى هذه القضية؛ لأنَّ الإمام أبي حنيفة كانت طريقته في تقرير المذهب وفي تقرير الفقه حَلْقة، هذه الحَلْقة يحضرها أساطينُ الفقهاء، يعني: لا تحسب أنَّه يجلس مجلسًا يتلقَّوَن عنه ويكتبون ثم يمشون، لا، الحضور عنده أبي يوسف محمد بن حسن الشيباني، وحفص بن غياث، أكابرُ المحدِّثين، وأكابرُ أهل اللُّغة، وأكابر الفقهاء والقضاة، كلُّهم في مجلسه. فتُطْرح المسألة، ثم يقول: ما رأيك يا أبا يوسف؟ فيتكلم، ثم يردُّ عليه الثاني، والثالث، ويحصل نقاشٌ، قيل: إنَّه قد تُنَاقش المسألة في حلْقة أبي حنيفة لمدة شهر. وهو تأسيس أول مجمع فقهي - إن صحت الأوليَّة - كان مجمعًا فقهيًّا. ثم بعد ذلك إذا انتهت المسألة يقرِّرها الإمام أبو حنيفة، بعد أن يسمع من الجميع يقول: أنت قلت كذا والرَّد عليه كذا والجواب عنه كذا وكذا، ثم يطرح المسألة ثم تُقرَّر، فإذا استقرت المسألة دُونِتْ في فقه أبي حنيفة، ولهذا كان تأسيسه فقهًا جماعيًّا.

الإمام أبو حنيفة صاحباه هما: محمد بن حسن الشِّيباني، والقاضي أبو يوسف.

الإمام أحمد أخذ عن القاضي أبي يوسف، اتصل نسبه بالمدرسة الحَنفيَّة تحديدًا وبفقه أهل الكوفة من طُرق كثيرة.

كذلك أخذ الإمام الشَّافعي عن محمد بن حسن الشِّيباني، حتى قيل إنَّه يقول: "كتبتُ عن محمد بن الحسن وِقْر بعير من الكتب"، وأخذ عنه واستفاد منه، فحصل له فقهُ أهل العراق وفقهُ الحنفيَّة. وكذلك أخذَ عن مالك، فتلاحظ أن الشَّافعي أخذَ عن مالك وأخذَ عن أبي حنيفة من طريق محمد بن الحسن.

الإمام أحمد أخذ عن الشَّافعي، كذلك أخذ فقه أهل مكة عن طريق سفيان بن عيينة وعن طريق غيره، وكذلك أخذ عن القاضي أبي يوسف وعن غيره من أهل العلم.

وهنا نلحظ التداخل والترابط بين هذه المدارس الفقهية. طبعًا، الإمام أحمد رحمه الله تعالى كان أوسعهم مادة من جهة اتصاله بجميع المدارس الفقهية للصحابة، وسعة روايته عن الصحابة.

العلماء رحمهم الله تعالى كلُّ عالم يتميز بميزة؛ الإمام أبي حنيفة - سيأتي معنا هذا - كان يتميز بقدرته على المناظرة والتقرير والاستدلال، حتى قال مالك -كما سيأتي معنا - : "لقيت رجلًا لو أراد أن يقنعك أنَّ هذه السَّارية من ذهب لفعل"؛ من قوة حُجَّته رحمه الله وفقهه.

الإمام أحمد رحمه الله تميَّز بسعة روايته للحديث، وهذه ميزة لا شكَّ أنَّه فاق الجميع فيها، خاصة بما يتعلق بآثار الصحابة، ولهذا قال الناظم في حق الإمام أحمد:

وهُـو مِنَ الأئمـةِ الكِبـارِ وأعلـمُ الجميـعِ بالآثـارِ
وقامَ بالإسلامِ حينَ أحجمَا كلٌّ عن الحقِّ فلمْ يفتحْ فما

إذًا، هذا ما يتعلَّق بالمدارس الفقهية.

وبالمناسبة، الفقه اليوم ومشايخنا الذين أخذنا عنهم، تُعرَف سلسلتهم الفقهيَّة إلى هؤلاء الأئمة. يعني مثلًا: شيخنا ابن عقيل، الشَّيخ محمد بن إبراهيم آل الشَّيخ، وغيرهم من المشايخ، أنت تعرف مثلًا الشَّيخ عبد الله بن عقيل، الشَّيخ عبد الله بن عقيل -رحمه الله- تفقَّه على شيخه محمد بن إبراهيم، والشَّيخ عبدالرحمن السَّعدي، له طريق يوصله إلى الإمام أحمد من طريق محمد بن إبراهيم - رحمه الله- ومن طريق السَّعدي، ثم يأتي تلميذه. فالفقه هذا نسبٌ علميٌّ متصلٌ يأخذ فيه التلاميذ عن شيوخهم.

المذاهب المندرسة

طبعًا، المدارس الفقهية الأربعة هي مدارس قائمة وموجودة، ومصنفاتها وكتبها إلى يوم الناس هذا.

هناك مذاهب وُجِدت في زمنٍ مضى، لكنها انقطعت وانْدَرَست، ومعنى الاندراس يعني: لم يعد هناك أتباعٌ ولا كتبٌ تبيِّن هذا المذهب.

من أئمة المذاهب المندرسة

الحسن البصري	سفيان الثوري
الأوزاعي	الليث بن سعد
سفيان بن عيينة	إسحاق بن راهويه
أبو ثور	ابن جرير الطبري

ومن المذاهب التي انقرضت مذهب الإمام الحسن البصري، وليس معنى انقراض هذه المذاهب أنَّ أقوال الحسن البصري لم تعد موجودة في الكتب، لا، متفرقة، لكنها موجودة متفرقة في بطون الكتب؛ تجد مثلًا صاحب (المغني) ينقل مسائل، وفلانًا ينقل مسائل.

الحسن البصري رحمه الله تعالى عدَّه القاضي عِياض من الأئمة أصحاب المذاهب المقلَّدة المدوَّنة، وقد جمع بعض العلماء فتاوى الحسن البصري في سبعة أسْفار - سبعة مجلدات -، وروى عمَّا يقارب (١٢٠) من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم منهم: عثمان بن عفان، وقد تُوفي الحسن البصري في سنة (١١٠هـ).

وأمَّا سفيان الثَّوري - وهو من أرباب المذاهب المقلَّدة أيضًا - له أتباعٌ وأصحابٌ يُفتون بمذهبه، وقد تُوفي سنة (١٦١هـ). يقول سفيان بن عيينة عن سفيان الثَّوري: "ما رأيت أعلمَ بالحلال والحرام منه"، ولكن مذهب الحسن البصري ومذهب سفيان الثَّوري لم يطلْ تقليدهما، وانقرض أتباعهما بعد مدة يسيرة ووجيزة.

من الأئمة الذين كان لهم مذهب الإمام الأوزاعي في الشَّام، الإمام أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي رحمه الله تعالى. يقول النَّووي: "انعقد الإجماع على إمامته وجلالته"، وقد قيل إنَّه أفتى في سبعين ألف مسألة، وتُوفي رحمه الله تعالى سنة (١٥٧هـ)، وكان قد سكن دمشق، ثم انتقل بعد دمشقَ إلى بيروتَ، سكن في بيروت ومات فيها مرابطًا.

ومن الأئمة كذلك الذين اندرست مذاهبهم: اللَّيث بن سعد، الليث بن سعد هذا صاحب مذهب، إمامٌ عالمٌ جليلٌ، حتى قال الشَّافعي: "اللَّيث أفقه من مالك، لكنَّه ضيَّعَه أصحابُه"، ولهذا العالم قد يضيع علمُه بسبب طلابه؛ الطلابُ لا ينشرون علمه ولا يعتنون به، فيضيع علمه بذلك السبب، ولهذا قال الشَّافعي: "ضيَّعه أصحابُه".

واللَّيث بن سعد من حيث نسبه هو: أصبهاني، سكن مصر وتوفي سنة (١٧٥هـ) في مصر. الأوزاعي (١٥٧)، واللَّيث (١٧٥).

ومن الفقهاء كذلك سفيان بن عُيينة. يقول الإمام الشَّافعي: "إنَّ العلم يدور على ثلاثة: مالك، واللَّيث، وابن عُيينة"، وقال ابن وهب: "ما رأيت أعلمَ بكتاب الله عزَّ وجلَّ من ابن عُيينة"، وقد تُوفي ابن عُيينة رحمه الله (أبو محمد سفيان بن عيينة)، الكوفي الأصل، المكِّي الدار، توفي سنة (١٩٨هـ).

(كنَّا قد وصلنا إلى ما يتعلق بأئمة المذاهب المندرسة، الذين كان لهم أتباع يأخذون بفقههم وفتاويهم، لكن انقطع أتباعهم، وقد ذكرنا منهم الحسن البصري، وسفيان الثوري والأوزاعي، واللَّيث بن سعد، وسفيان بن عُيينة).

وكذلك منهم الإمام إسحاق بن راهوْيَه أو ابن راهويه. قال الإمام أحمد -رحمه الله- :"لا أعلم لإسحاق نظيرًا". والإمام إسحاق -رحمه الله- توفي سنة (٢٣٨هـ) وليس هناك كتبٌ مستقلَّة في بيان مذهب إسحاق بن راهويه رحمه الله، وإنْ كان بعض العلماء مثل: الحرب الكرماني، وكذلك إسحاق بن منصور الكَوْسَج؛ كانوا يجمعون فقه أحمد وإسحاق، ولهذا لو رجعتم إلى مسائل الكَوْسَج وهي مطبوعة تجد فيها فقه أحمد وإسحاق رحمه الله تعالى.

كذلك من الأئمة الإمام أبو ثور رحمه الله، وقد كان له مذهبٌ مدونٌ انقطع أتباعه بعد الثلاثمئة. وقد اُختلف فيه (أبو ثور) قيل: إنَّه من فقهاء الشَّافعية، ومن أكابر فقهاء الشَّافعية. وقيل: إنَّه مجتهدٌ مستقلٌّ. وقد توفي سنة (٢٤٠هـ).

وأما ابن جرير الطبري رحمه الله، فقد كان له أتباعٌ يُقال لهم: الجريرية. قال ابن خزيمة رحمه الله: "ما أعلم أحدًا على أديم الأرض أعلم من ابن جرير" (ابن جرير الطَّبري). هو الفقيه له كتاب في الفقه، والمفسّر وله كتابٌ في التَّفسير (تفسير ابن جرير الطبَّري) الذي قيل فيه: " لو رحل إنسانٌ إلى الصِّين؛ ليأخذ تفسير ابن جرير؛ لما كان ذلك كثيرًا عليه"، وكذلك مؤرِّخ؛ كتب التاريخ (تاريخ الأمم والملوك). وقد انقطع أتباعه بعد الأربعمئة.

وهو قد أخذ عن أصحاب مالك وعن أصحاب الشَّافعي؛ ولهذا تتنازعه المالكية والشَّافعية - فترجم له القاضي عِياض رحمه الله في المدارك، وترجم له السُّبكي في طبقات الشَّافعية - لماذا؟ لأنَّ المالكيَّة ترجموا له قالوا: هذا من أصحابنا؛ لأنَّه أخذ عن أصحاب الإمام مالك. والشَّافعيَّة قالوا: هذا من أصحابنا؛ لأنَّه أخذ عن أصحاب الشَّافعي. وبعد ذلك صار مجتهدًا مُستقِلًّا، وتوفي سنة (٣١٠هـ)، وانقطع أتباعه بعد الأربعمئة رحمة الله عليهم أجمعين.

المقطع الحادي عشر والثاني عشر

المذاهب الفقهية الأربعة

ونشرع الآن في الكلام عن المذاهب الفقهيَّة الأربعة، التي ما زالت قائمة إلى اليوم، يُفْتى بها ويُقْضَى بها ويُصنَّف فيها.

وهذه المذاهب الأربعة ذكر الإمام ابن رجب -رحمه الله تعالى- في رسالته (الرَّد على من اتبع غير المذاهب الأربعة) أنَّ الله عزَّ وجلَّ حفظ القرآن، وكان من الأسباب التي هيأها الله عزَّ وجلَّ لحفظ القرآن: ما قام به عثمان بن عفان رضي الله عنه في جمع المصحف، وعثمان رضي الله عنه جمع النَّاس على حرف واحد، وعلى مصحف واحد. وهيَّأ الله عزَّ وجلَّ من الأسباب في حفظ السُّنة: بالأسانيد وبعلم الرجال، وقام المحدِّثون بجهود عظيمة في حفظ السّنة، في دراسة أسانيدها، ومعرفة طُرقها ورجالها. وكذلك الله عزَّ وجلَّ هيَّأ الأسباب لحفظ الحلال والحرام، ولحفظ الفقه، وذلك عن طريق هذه المذاهب الأربعة. وهذه المذاهب الأربعة حفظ الله عزَّ وجلَّ بها العلم والفقه، وجمع الله عزَّ وجلَّ بها الأمة.

وبعض الناس يتصور أنَّ المذاهب الفقهية سبب لتفرق الأمة، وهذا غلط كبير!! بل هذه المذهب الفقهيَّة سبب لاجتماع الأمة، وليست سببًا لتفرقها.

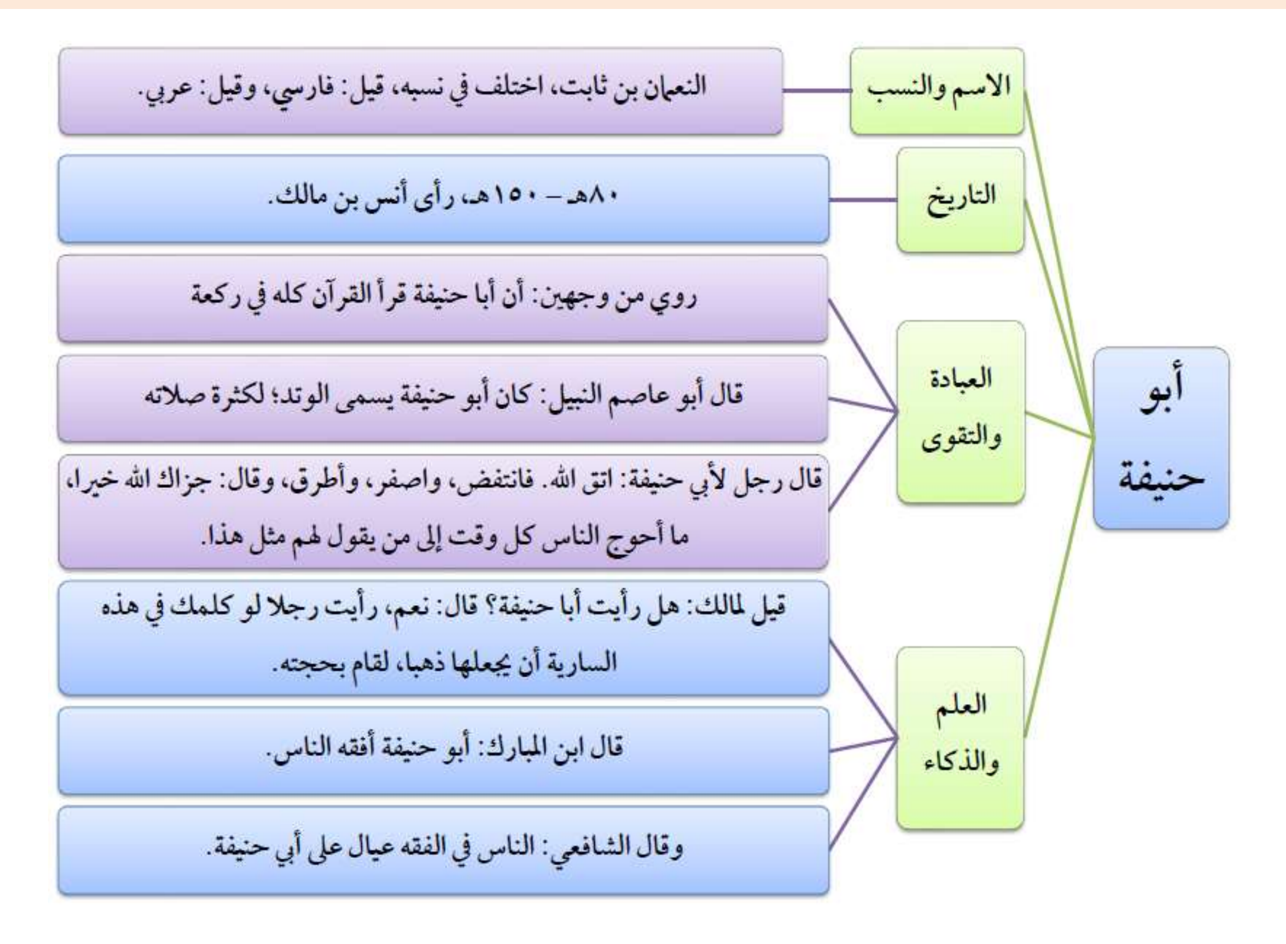
ولما حُوربت المذاهب الفقهية -وهذا من أكبر الغلط أن تُحارب هذه المذاهب-، بعض الناس يعتقد أنَّ هذه المذاهب مزَّقت الأمة وفرَّقت الأمة!، بالعكس: لما هُدِمت - أو ما هُدِمت، المذاهب باقية: مؤلفاتها وعلماؤها وطلاب العلم يدرسونها - ولكن بعض الناس يسعى إلى هدم هذه المذاهب وإلغاء هذه المذاهب، ويظن أنَّه بذلك يجمع الناس، وإنَّما الواقع أنَّه يتفرَّق الناس: بدلَ أن يكون الناس على مذاهب أربعة يصيرون على أربعمئة مذهب، كل واحد يصير رأسًا بذاته.

فالمقصود أن هذه المذاهب كما ذكر الإمام ابن رجب أنَّ الله عزَّ وجلَّ قدّر أنْ تجتمع الأمة في هذه المدارس.

وهذه المذاهب الأربعة، بعض الناس يتصور أنَّها تمثِّل أربعة أشخاص من أمة فيها هذه الملايين، وفيها هذه المئات من المجتهدين، وهؤلاء يمثلون أربعة مجتهدين. فهو يتصوَّر يقول: المجتهدين مئات من الصحابة، والتابعين وأتباع التابعين، وهؤلاء أربعة، ماذا يمثلون؟

نقول: ليست القضية أربعة أشخاص: هذه المذاهب الأربعة اجتمعت فيها المدارس الفقهيَّة للأمة كلها. وقد عرفنا هذا، لما عرفنا أن المدارس الفقهية في زمن الصحابة والتابعين اجتمعت ووُجِدَت في هذه المذاهب الأربعة. فليست القضية أنَّه شخص مالك، وشخص الشافعي، وشخص أبي حنيفة، وشخص أحمد بن حنبل. هؤلاء أربعة، ماذا يمثلون في تاريخٍ فقهيٍّ عريق؟ هؤلاء يمثِّلون كلَّ المدارس الفقهية، من زمن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم.

الإمام أبو حنيفة



الإسم والنسب والتاريخ

والإمام أبو حنيفة رحمه الله هو أول هؤلاء الأئمة من جهة الزَّمان؛ فقد وُلِد رحمه الله في سنة (٨٠هـ)، وهو النعمان ابن ثابت بن زُوطى أو زَوْطَى (على وزن موسى أو وزن سلمى) رحمه الله اختُلِف في نسبه؛ قيل إنه: فارسيٌّ، وقيل: إنَّه عربي، وهذا لا يؤثر فإنَّه إمام من أئمة الدِّين. وقد وُلِد سنة (٨٠هـ) -كما ذكرنا-، وتُوفي في سنة (١٥٠هـ). وقد ذكرنا أنَّ هذه السَّنة التي تُوفي فيها أبو حنيفة، وُلِد فيها الشَّافعي رحمه الله.

والإمام أبو حنيفة رحمه الله رأى أنَس بن مالك، ولهذا هو معدود في التَّابعين. وبعض الناس قد لا يُثْبِت هذا الأمر ولكنه معدود في التابعينَ. نعم لم تثبت له رواية عن الصحابة لكن ثبتت له الرُّؤية، والرُّؤية يثبت بها وصف أنَّه من التابعين.

طبعًا هناك من الناس من لا يُثْبِت وصفًا، يقول: إنَّ أبا حنيفة من أتباع التابعين. ولكنَّ كثيرًا من المؤرخين ومن أهل العلم يُثْبِت أنَّه رأى أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه. وبهذا يكون الإمام أبو حنيفة هو الوحيد من الأئمة الأربعة الذي عُدَّ في التابعين، وبقيتهم هم من أتباع التابعين.

العبادة والتقوى

الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى كان من أئمة العبادة، وهذا وصفٌ لا تكاد تُخطئه؛ إذا قرأتَ تراجم أئمة أهل العلم من السَّلف، تجد أنَّ أئمة السَّلف يُجمعون بين العلم والإمامة في العبادة والإمامة في العلم. والإمام أبو حنيفة كما ذكر الذّاهبي في السِّير قال: "رُوِي من وجهين أنَّ أبا حنيفة قرأ القرآن كلَّه في ركعة". وهذا ثبت عن غير واحد من الصَّحابة والتَّابعين وغيرهم أنَّه قرأ القرآن في ركعة. وهل هذا مُتَصَوَّر؟ بلا شك هو مُتَصَوَّر وممكن. وهذا دليلٌ على عبادته وزهده رحمه الله تعالى.

ويقول أبو عاصم النبيل: "كان أبو حنيفة يُسَمَّى الوتدُ لكثرة صلاته". وممَّا يدل على تقواه رحمه الله أنَّه قال له رجلٌ: "اتقِ الله". أبو حنيفة هذا يُسمَّى الإمام الأعظم جاءه رجلٌ من عامَّة الناس قال: "اتَّقِ الله!!". فماذا كان منه؟ قال: فانتفضَّ واصفرَّ وأطرق وقال: "جزاك الله خيرًا. ما أحوجَ الناس كلَّ وقت إلى مَن يقول لهم مثل هذا". فهذا هو المنبغي في أهل العلم، وهذا حال جميع أهل العلم -رحمهم الله- من الأئمة المتبوعين؛ أنهم كانوا أصحاب عبادة وتقوى.

الذكاء

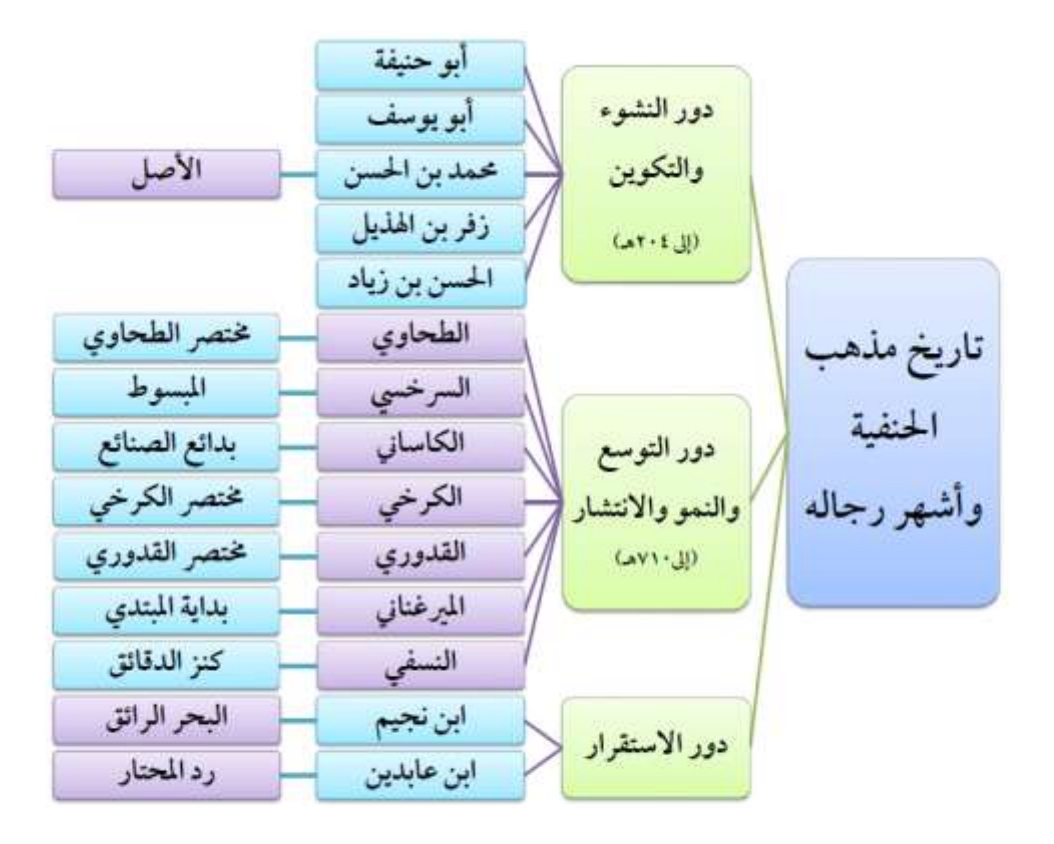
وأما من ناحية الذكاء؛ لأن المقوِّم الذي يحتاجه العالم هو: الجانب العلمي، والجانب الإيماني. الجانب الإيماني ليكون عالمًا متبوعًا يثق الناس في رأيه، أن يكون رجلًا يخاف الله عز وجلَّ ويتقي الله، ولا يكفي كثرة المعلومات!. فمن جانب العلم وهو الجانب الثاني قيل لمالك: "هل رأيت أبا حنيفة؟ فقال: نعم، رأيت رجلًا لو كلَّمك في هذه السَّارية أنْ يجعلها ذهبًا؛ لقام بحُجَّته". وهذا دليل على قوة الحُجَّة.

والإمام أبوحنيفة كانت حلْقته حلْقة مناظرة، وكانت -كما ذكرنا- مكتظَّة بأئمة الدِّين – علماء الكوفة؛ يعني كانت الحلْقة الرئيسية في الكوفة في زمانه هي حلْقةُ الإمام أبي حنيفة؛ فيحضرها القضاة، والعلماء، وأهل اللُّغة وأهل الحديث. وكان يفتح المجال للنقاش، فإذا أخطأ ردوا عليه.

ولهذا يُرْوى أنَّ وَكِيع قيل له: أخطأ أبو حنيفة. فقال: كيف يُخطئ أبوحنيفة، وعنده مثل: محمد بن الحسن وأبو يوسف في فقههم، وعنده مثل فلان بن فلان، وذكر رجلًا من أئمة اللُّغة، وعنده حفص بن غِياث في الحديث، وعنده الفُضَيْل بن عِياض في الزُّهد،كيف هذا؟ إذا أخطأ ردُّوا عليه.

فهذا مذهب - كما ذكرنا لكم - مذهبٌ نشأ نشأةً جماعيَّة، مجمع فقهي حلْقة الإمام أبي حنيفة رحمه الله. وقال ابن المبارك: "أبو حنيفة أفقه الناس" وحسبك بهذه الكلمة. وقال الامام الشَّافعي رحمه الله:" الناس في الفقه عِيالٌ على أبي حنيفة" فشهد للإمام أبي حنيفة بالفقه مالكٌ والشافعيُّ من أئمة المذاهب رحمة الله تعالى عليهم أجمعين.

بالنسبة للمذهب الحنفي -مذهب الامام أبي حنيفة- مرَّ بثلاثة مراحل في تدوين المذهب وفي نشأة المذهب.



مرحلة النشوء والتكوين:

الدور الأول أو المرحلة الأولى هي مرحلة النشوء والتكوين. ولا شك أنّ هذه المرحلة -نشأة المذهب الحنفي- تبدأ من الامام أبي حنيفة نفسه، ومعه في ذلك أبو يوسف القاضي الذي ولد سنة (١١٣هـ) وتوفي سنة (١٨٣هـ). والامام أبو يوسف كان ركنًا من أركان المذهب الحنفي، وكان له دور كبير جدًّا في نشر المذهب الحنفي، والسبب في ذلك أنّ الامام أبو يوسف رحمه الله كان مسؤول القضاة في الدولة العباسية؛ مسؤول القضاة يعني تقدر تسمّيه وزير العدل مثلاً في زمن الدولة العباسية: في زمن هارون الرشيد وغيره.

فلمّا كان قاضيا، كان يقضي بمذهب أبي حنيفة فسبَّبَ ذلك انتشار المذهب. وكان كثير من القضاة الذين تولّوا مقاليد القضاء ممّن عرفهم القاضي أبو يوسف بالفقه، فعيَّنهم في القضاء من أتباع المذهب الحنفي، فأدّى ذلك إلى انتشار مذهب الامام أبي حنيفة، وكان للقاضي أبو يوسف دور كبير في ذلك.

ومن أركان المذهب الحنفي أيضًا الامام محمد بن الحسن الشيباني رحمه الله تعالى. والقاضي أبو يوسف كان له دور في نشر المذهب في الناحية العملية القضائية، وأمّا الامام محمد بن الحسن الشيباني فكان له دور كبير في نشر المذهب الحنفي في ناحية التدوين والتصنيف.

كتب أبو يوسف لم يبقَ منها شيء كثير؛ بقي منها (كتاب الخراج)، وأمّا كتب محمد بن الحسن الشيباني فكانت هي العمدة في المذهب الحنفي، وله ستّة كتب تعرف بكتب (ظاهر الرواية) وهي:

١. المبسوط ويسمى الأصل، عندكم مكتوب الأصل.
٢. وكذلك عنده الجامع الصغير.
٣. والجامع الكبير.
٤. وعنده الزيادات.
٥. وعنده السير الكبير.
٦. والسير الصغير.

وهذه الكتب الستة تسمى كتب ظاهر الراوية. وقد توفي الامام محمد بن الحسن الشيباني رحمه الله سنة (١٨٩هـ).

ومن أئمة المذهب الحنفي ومن أصحاب أبي حنيفة وطلابه زُفر بن الهذيل رحمه الله تعالى، وهو أول أصحاب أبي حنيفة موتا، زفر بن هذيل توفي سنة (١٥٨هـ).

ومنهم الحسن بن زياد اللؤلؤي وهذا أيضًا من أصحاب أبي حنيفة توفي سنة (٢٠٤هـ). (٢٠٤هـ)، مرّ معنا هذا التاريخ؟ نعم سنة وفاة الامام الشافعي، توفي في نفس السنة الحسن بن زياد اللؤلؤي وهو آخر أصحاب أبي حنيفة الذين اعتمدوا في مذهبه وكانوا من أركان المذهب.

أبو يوسف و محمد بن الحسن يطلق عليهم في المذهب الحنفي وفي غيره من كتب فقه الخلاف: الصاحبان. فإذا قرأت في كتب العلماء "وذهب الصاحبان إلى كذا.." فهما أبو يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني.

ومحمد بن الحسن وأبو يوسف هم من العلماء والفقهاء المجتهدين يعني لم يكونوا من المقلّدة لأبي حنيفة، فقط أخذوا المذهب هكذا، بل كانوا جزءا في تكوين المذهب، بل إنّهم خالفوا الامام أبي حنيفة في مسائل، وأُعتمد بعضها في الفتوى في المذهب الحنفي. المذهب الحنفي مكوّن من أقوال أبو حنيفة وأقوال أبي يوسف ومحمد بن الحسن وأحيانا أيضًا زُفرا وغيره..

قد تكون الفتوى عند الحنفية على قول الصاحبين وليست على قول الامام أبي حنيفة، في بعض المسائل خالفوه، خاصّة أنّ محمد بن الحسن والقاضي أبو يوسف لم يقتصروا في أخذهم وتلّقيهم على أبي حنيفة. لأ، أخذوا عن مالك أيضًا؛ أبو يوسف التقى بالامام مالك، وكذلك محمد بن الحسن التقى بالامام مالك وروى عنه الموطأ، وهناك نسخة من الموطأ موجودة ومطبوعة اسمها موطأ الامام مالك برواية محمد بن الحسن الشيباني. فلمّا رحل إلى مالك والتقى بالامام مالك، رجع وعنده شيء من المزج بين مدرسة العراق ومدرسة المدينة. مدرسة العراق ومدرسة الحجاز أو مدرسة المدينة. وهذا أثّر أيضًا على المدرسة الحنفية نفسها، يعني حتى الكتب الحنفية تثبت الأراء التي خالف فيها محمد بن الحسن شيخه أبا حنيفة فيقول لك:" والله هذه المسألة، المعتمد فيها قول أبي حنيفة"..و هذا هو الأصل. لكن في بعض المسائل يقول لك: "المعتمد هو قول الصاحبين". وقد يوافقون أبا حنيفة وهذا كثير بلا شك يعني يكون المسألة قول أبي حنيفة وأبي يوسف و محمد بن الحسن كل شيء واحد لكن في بعض المسائل يختلفون في ذلك.

مرحلة التوسع والنمو الانتشار

انتقل بعد ذلك المذهب إلى الدور الثاني والمرحلة الثانية وهي مرحلة التوسع والنمو الانتشار. استقر المذهب، يعني المرحلة الأولى جُمعت فيها أقوال الامام أبي حنيفة ثمّ بعد ذلك بدأ التدوين يتطور وصنّفت المختصرات والمتون.

فكتب الطحاوي مختصرا في الفقه، والطحاوي هو أبو جعفر الطحاوي له كتاب في الاعتقاد مشهور وهو (العقيدة الطحاوية): هذا كتاب في العقيدة، وله مختصر أيضًا في الفقه، وله كتب أخرى أيضًا الامام الطحاوي رحمه الله.

وكذلك من علماء هذه المرحلة الامام السَرخسي: وله كتاب (المبسوط).

وكذلك من علماء هذه المرحلة الامام الكاساني والكاساني له كتاب (بدائع الصنائع)، بدائع الصنائع هذا شرح به كتابًا لأحد علماء الحنفية اسمه السمرقندي -أبو الليث السمرقندي-، شرح فيه الكاساني (تحفة الفقهاء) بكتابه (بدائع الصنائع) وماذا كانت الجائزة؟ يقولون الكاساني شرح تحفة أبي الليث السمرقندي ولهذا يقولون "شرح تحفته وتزّوج ابنته"؛ تزوج بنت السمرقندي.

وكذلك من الكتب: الامام الكرخي رحمه الله له كتاب (مختصر الكرخي).

وكذلك عندنا (مختصر القدوري) وهو من المتون المعتمدة، مختصر القدوري احدى المتون الأساسية والمعتمدة في مذهب الامام أبي حنيفة ويسمونه "الكتاب"، إذا أطلقوا الكتاب فالمراد به مختصر القدوري. وهناك كتاب اسمه (اللباب في شرح الكتاب) يعني شرح مختصر القدوري.

ومن علماء هذه المرحلة الشيخ المرغيناني -رحمه الله- له كتاب (بداية المبتدي). وبداية المبتدي هذا أيضًا اشتغل به الحنفية اشتغالاً كبيرًا وصنّفوا عليه الشروح، وممّن شرحه مؤلفه، صنف فيه (الهداية شرح البداية). وقد اعتنى علماء الحنفية بكتاب الهداية هذا؛ خرَّجوا أحاديثه وشرحوه شروحًا كثيرة منها:

- الكتاب المعروف بشرح "فتح القدير" هذا الشرح لكتاب الهداية.
- وهناك "البناية شرح الهداية" وغيره.

كذلك من العلماء في هذه المرحلة النَسَفي له كتاب اسمه (كنز الدقائق)؛ وكنز الدقائق أيضًا هذا أحد المتون المعتمدة في مذهب الامام أبي حنيفة، وشُرح بعدّة شروح كثيرة منها: (البحر الرائق في شرح كنز الدقائق) وعندنا أيضًا شرح (تبين الحقائق -للزيلعي- على كنز الدقائق).

وعلى كل حال بالمناسبة يمكن أن يقول كثير منكم كيف أحفظ أسماء هذه الكتب؟ قال لي أحدهم كلمة، يقول: درست كثيرا هذه الكتب ومرَّت عليَّ، درستها في المدخل الفقهي وفي تاريخ الفقه وكذا، لكنّني ما عرفت هذه الكتب وحفظتها وعرفت ما فيها إلّا لمّا دخلت في البحث الفقهي. فأنت إذا دخلت المكتب الفقهية ومارست البحث سيصير عندك حفظ

أسماء هذه الكتب وحفظ مؤلفيها سجيَّة. فلهذا لا يلزم أن تتكلف في هذا الوقت وتقول: أنا حضرت الدرس وما استفدت شيئا، وعرفت (كنز دقائق) و كذا ولكنّي ما حفظت مؤلفيها ولا عرفت في أي مذهب.

نقول هذه ستستقر عندك مع مرور الأيام اذا اشتغلت بالبحث الفقهي وقرأت، وإذا ذهب منها شيء فهذا لا يضر. يعني إذا أنت لم تكن مشتغلا بمذهب أبي حنيفة، ولا تعرف أنّ مؤلف بداية المبتدي هو المرغيناني، هذا أمر لا يضر. لكن من بحث واشتغل بالبحث والقراءة تصير هذه الأمور عنده سجية.

دور الاستقرار

بعد ذلك جاء عندنا دور الاستقرار؛ الذي استقر فيه مذهب الامام أبي حنيفة بعد سنة سبعمائة وعشرة؛ المتون المعتمدة استقرت وصنّفت واشتغل النّاس بعد ذلك بشرحها وبيان معانيها.

ومن العلماء في هذه المرحلة ابن نجيم الحنفي الذي كتب كتابه (البحر الرائق شرح كنز الدقائق)، وكذلك صنّف ابن عابدين كتابه (رد المحتار) وهذا ختام التصنيف في المذهب الحنفي: الذي هو كتاب حاشية ابن عابدين اسمه (رد المحتار على الدرّ المختار).

شرحُ (رد المحتار) شَرَح (الدر المختار) على (تنوير الأبصار)، لو أقول لك اسم تنوير الأبصار هذا لمن؟

- رد المحتار هذا لابن عابدين.
- والدر المختار هذا لمن؟ للحصكفي
- وتنوير الأبصار للتمرتاشي

خلاص !! إذًا لا تحفظها .. لكن إذا كنت طالب علم متخصص في المذهب الحنفي تدرس مذهب الامام أبي حنيفة فلابّد ستعرف هذه الكتب بلا شك.

تلخيص مذهب الامام أبي حنيفة

نلخص ما سبق معنا عن مذهب الامام أبي حنيفة:

- عرفنا أنّ مذهب الامام أبي حنيفة رحمه الله هو مذهب نشأ بشكل جماعي، وكانت للإمام أبي حنيفة حلقة يُدَّرس فيها الفقه وكانت فيها مناظرات ومناقشات، وربّما استمروا في المسألة الواحدة لمدة شهر حتى تستقر وتُكتب بعد ذلك في كتب ظاهر الرواية.

- ومن أعلام هذا المذهب الامام أبو يوسف القاضي الذّي توّلى القضاء في الدولة العباسية، وكذلك الامام محمد بن الحسن الشيباني، ويعرف هذا هذا بالصاحبين. ومحمد بن الحسن الشيباني صنَّف كتبا في مذهب الامام أبي حنيفة منها الأصل ويعرف بالمبسوط وكذلك الجامع الكبير و الجامع الصغير إلى آخره.

- وهذا المذهب مرَّ بعدة مراحل:

1) المرحلة الأولى كانت مرحلة النشوء والتصنيف والجمع.
2) ثمّ بعد ذلك بدأ العلماء ينظرون في هذه الأقوال التي جمعها محمد بن الحسن الشيباني، وصنّفوا فيها كتبا مختصرة وصححوا الرواية، وما هو المعتمد في المذهب وما هو غير المعتمد.
3) ثمّ بعد ذلك جاءت المرحلة التّي بعدها: مرحلة إستقرار اقتصرت أو ركزت على شرح المتون التي صنّفت في المرحلة السابقة.

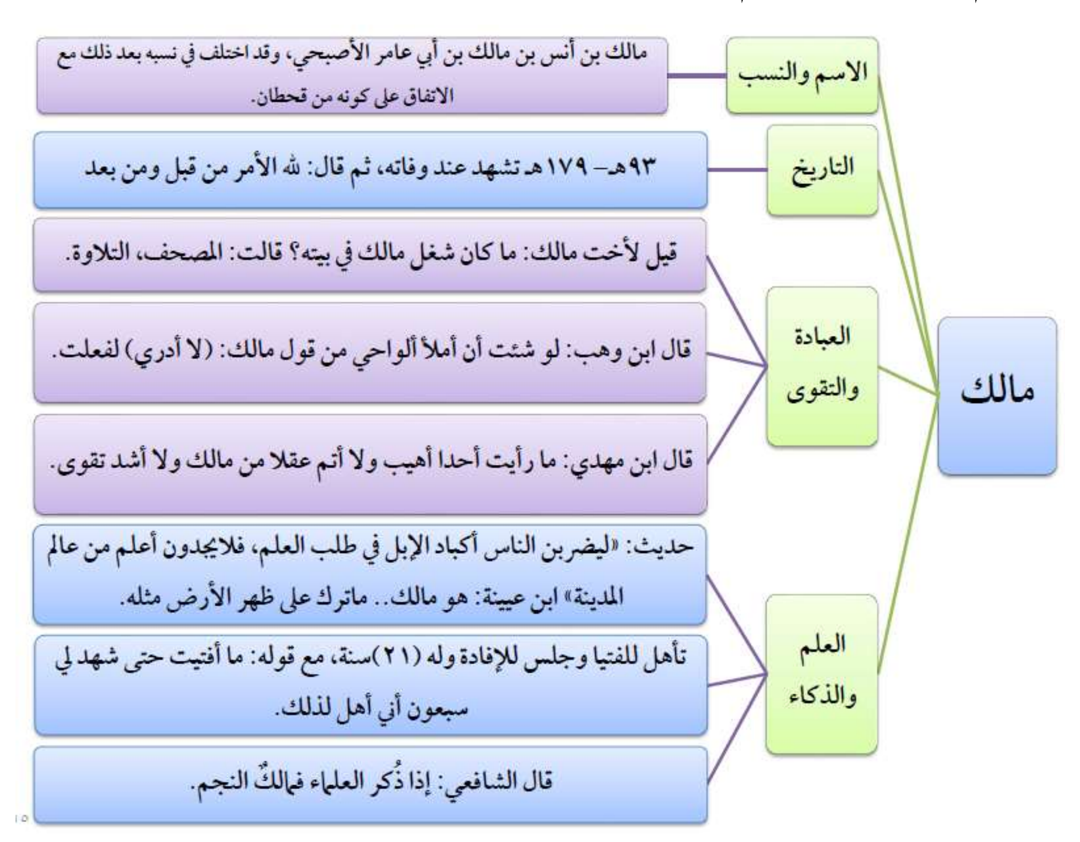
- وقد عرفنا أيضًا في ترجمة الامام أبي حنيفة ما كان عليه من العبادة والتقوى والزهد والورع، وكذلك ما كان عليه من الذكاء الشديد، وما كان عليه من العلم والدراية.

ونسأل الله عزّ وجل باسمه الأعظم أن يتغمد هذا الامام، وأن يتغمد أعلام هذا المذهب بالرحمة والمغفرة، إنّه ولي ذلك والقادر عليه. وفي الدرس القادم -ان شاء الله- نأخذ ما يتعلق بمذهب الامام مالك رحمه الله وصلى الله وسلم على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه آجمعين.

المقطع الثالث عشر والرابع عشر

الإمام مالك

فقد سبق معنا الكلام عن مذهب الامام أبي حنيفة رحمه الله، والثاني من المذاهب الفقهية الأربعة من حيث التسلسل الزمني هو مذهب الامام مالك بن أنس إمام دار الهجرة.



الإسم والنسب والتاريخ

وهو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي، وقد اختلف في نسبه بعد ذلك، مع الاتّفاق على كونه من قحطان، وهذا لا يعنينا كثيرا تحقيق نسب الامام مالك رحمه الله تعالى. وقد ولد هذا الامام سنة(٩٣هـ) -وهي السنة التي توفي فيها أنس بن مالك رحمه الله، وتوفي رحمه الله في سنة (١٧٩هـ)، وقد تشَّهد عند وفاته وهذه خاتمة حسنة وفقه الله عزَّ وجلَّ إليها أنّه تشَّهد عند وفاته ثمّ قال "لله الأمر من قبل ومن بعد".

العبادة والتقوى

الامام مالك رحمه الله شأنه شأن الأئمة من أئمة السلف، كانوا على قدر عظيم من العبادة ومن التقوى ومن خشية الله سبحانه وتعالى وهذا هو رأس العلم؛ فإنّ رأس العلم هو مخافة الله سبحانه وتعالى.

ولهذا لمّا قيل لأخت الامام مالك "ما كان شُغله في بيته" ..قالت: "كان شغله المصحف والتلاوة". هذا شُغله في البيت -المصحف و التلاوة -، وهذا جانب عظيم من جوانب التقوى والخوف من الله عند الامام مالك رحمه الله.

يقول ابن وهب: "لو شئت أن أملأ ألواحي من قول مالك (لا أدري) لفعلت"؛ يقول لو أنّه في كل مرّة يُسأل الامام مالك عن مسألة ويقول فيها "لا أدري"، لو أكتبها لامتلأت ألواحي، صار عندي يعني مجلدات خاصة فقط بمسائل "لا أدري".

وقد جاء رجل من العراق إلى الامام مالك فسأله عن بضع وأربعين مسألة، فقال في ستّ وثلاثين منها "لا أدري"، ستّ وثلاثين من بضع وأربعين مسألة. وهذه المسألة من أعظم ما ينبغي ويجب أن يتربى عليه طالب العلم. يجب على طالب العلم أن يحفظ كلمة "لا أدري" هذه ويجعل له فيها وردًا، لا بّد أن تجعل كلمة "لا أدري" على طرف اللسان.

بعض النّاس يُسأل عن مسألة لو عُرضت على عمر لجمع لها أهل بدر فيقول: "والله يا أخي أحس أنّها حرام". أحس يعني إحساس.. فيتكلم في دين الله بالذوق يقول: (والله، لا لا، مستحيل تكون أنّها حرام، أكيد إنّها حلال)، ويتكلم في دين الله..

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ والله عزّ وجلّ يقول ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ من أول من يدخل في الكذب على الله، من ينسب إلى دين الله عزَّ وجلَّ ما ليس منه بغير علم. والقول على الله بغير علم من كبائر الذنوب، قال الله عز وجل ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وهذا دأب الأئمة: مالك، الشافعي، أحمد، أبو حنيفة، وحتّى الامام أحمد - سيأتي معنا- ولو مسكتم فتاوى الامام أحمد لوجدتم مئات المسائل يسأل عنها أحمد يقول: "لا أدري" مع أنّه يمكن يكون حافظ في هذه المسألة ٢٠٠ حديث. حديث بمعنى أحاديث عن النّبي عليه الصلاة والسلام، وعن الصحابة وعن التابعين لكن يقول: "لا أدري". لم؟ لأنّه توقف في الترجيح في المسألة؛ إمّا تعارضت عنده الأدلة أو وجد الصحابة اختلفوا، وهذا أمر لابّد أن يتربى عليه طالب العلم.

وحدّثنا بعض المشايخ وهو الشيخ محمد بن عبد الله الحسين رحمه الله وهو من طلاب الشيخ محمد بن ابراهيم يقول: "كنّا نسأل الشيخ محمد بن ابراهيم"، والشيخ محمد بن ابراهيم مفتي الديار السعودية في زمانه، يقول: "كنّا نسأله عن بعض المسائل فيقول لنا "لا أدري" وهي من المسائل الواضحة". يقول: "فعرفنا بعد ذلك أنّ الشيخ يريد أن يُربيَّنا على هذه الكلمة". يعني هدفه من الإجابة على مسألة واضحة بقول "لا أدري" أنّ الطالب يقول: مفتي الديار يُسأل عن مسألة واضحة ويقول "لا أدري" !! فيأخذ الطالب منه ويتلقى عنه هذه الكلمة.

والعلماء رحمهم الله كانوا يتلقون عن شيوخهم الأدب والسمت قبل العلم، ولهذا كان يحضر مجلس الامام أحمد أكثر من خمسة ألاف. من الذي يكتب فيهم؟ نحو من الخمسمائة، والبقيَّة يأخذون من سمته وأدبه وهديه وخشيته رحمه الله تعالى. وممّا يؤخذ عن الشيوخ "لا أدري".

وبالمناسبة نحن ذكرنا النسب العلمي لكل واحد من الأئمة الأربعة. الامام أبو داوود صاحب السنن أخذ عن الامام أحمد. والامام أحمد أخذ عن عدد من العلماء.

لكن يقول الشيخ محمد سالم بن عدود رحمه الله :

رَبَّ ابنُ مسعود مقيمُ المِلَّهْ   فكان يحكي هَديه ودَلَّهْ
وكان علقمة لابن أمِّ   عبدٍ، كهذا للنبيِّ الأمي

("مقيم الملّة" يعني النبي عليه الصلاة والسلام، فكان أشبه النّاس بالنبيﷺ ابن مسعود).

يعني كان أشبه النّاس بابن مسعود علقمة، وكان أشبه النّاس بعلقمة ابراهيم النخعي، وكان أشبه النّاس بابراهيم النخعي سفيان الثوري، وكان أشبه النّاس بسفيان الثوري وكيع بن الجراح، وكان أشبه النّاس بوكيع بن الجراح أحمد بن حنبل، وكان أشبه النّاس بأحمد بن حنبل أبو داوود.

رَبَّ ابن مسعود مقيمُ المِلَّهْ   فكان يحكي هَديه ودَلَّهْ
وكان علقمة لابن أمِّ   عبد، كهذا للنبيِّ الأمي
كذاك إبراهيم يحكي علقمة   واهًا له من نسبٍ ما أكرمه
و كان سفيان لابراهيم   كذاك يحكي هديه القويما
وهكذا أيضا وكيعٌ كانا   مشبها بشيخه سفيانا
وكان أحمدُ لدى الجميع   مشبهًا بشيخه وكيع
كذا أبوا داود عند الكُمَّل   مشبهًا بأحمد بن حنبل

الأمر الآخر في عبادة الامام مالك وتقواه، أنّ ابن مهدي عليه رحمه الله يقول: "ما رأيت أحدا أهيب ولا أتّم عقلا من مالك ولا أشد تقوًى منه".

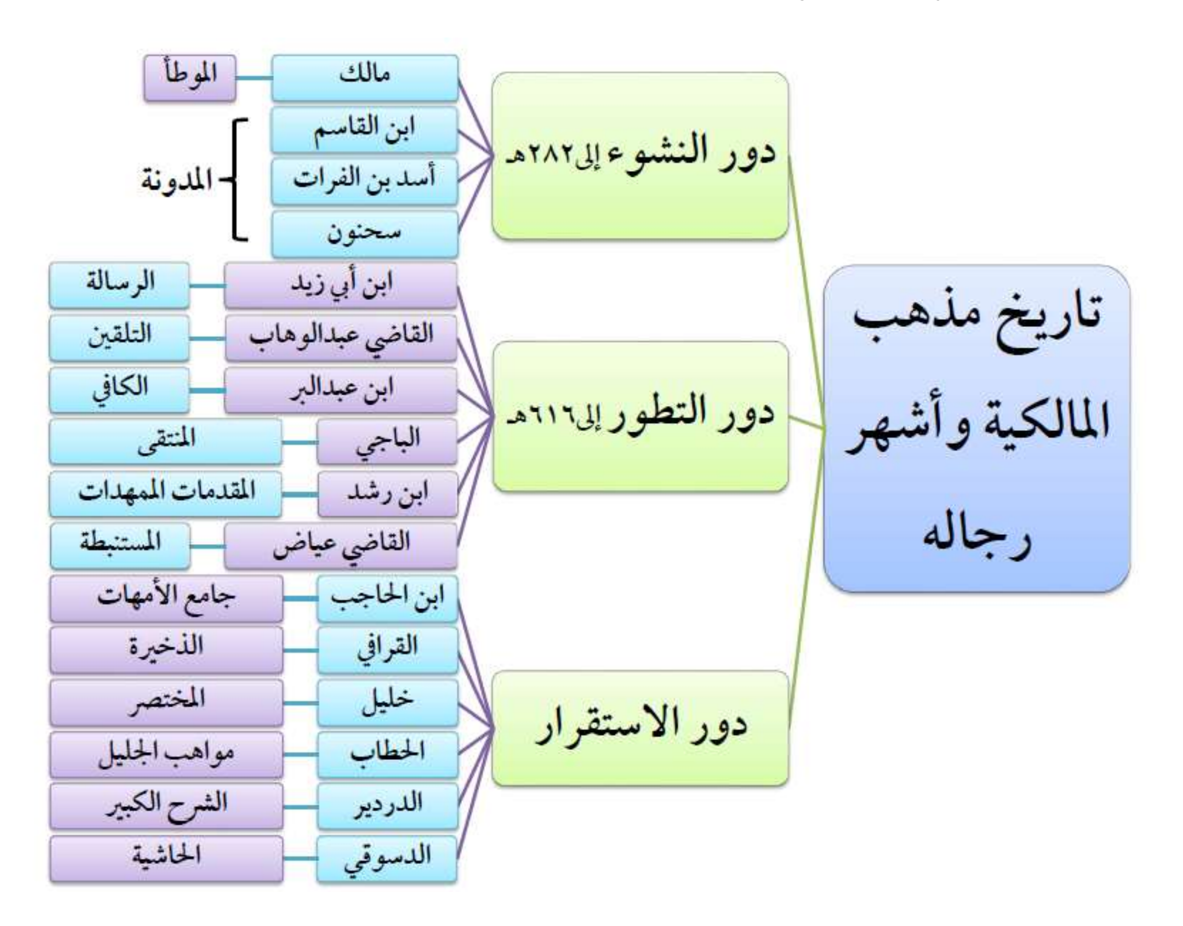
وكان رحمه الله معظمًّا للسنة، ما يأتي إلى مجلس الحديث إلّا بعد أن يغتسل ويتطيَّب ويلبس أحسن ثيابه -رحمه الله-، حتى يُروى كما ذكرنا لكم أنّه لُدغ في مجلس الدرس، فما تحرك تعظيما لسنة النبي ﷺ.

العلم والذكاء

وأمّا علمه فإنّ من أعظم ما ناله من الشرف أنّ النبي ﷺ جاء في الحديث أنّه قال: "ليضربن النّاس أكباد الابل في طلب العلم فلا يجدون أعلم من عالم المدينة". من هو عالم المدينة؟ اختلف العلماء فيه لكن بعض أهل العلم منهم سفيان بن عيينة يقول: "هو مالك". ما تَرك على ظهر الأرض مثله -رحمه الله- وهذا شرف عظيم.

ومن علمه -رحمه الله- وذكاءه أنّه تأهل للفُتْيا وجلس للإفادة وعمره واحد وعشرين سنة، لكن لم يجلس للفتيا وعمره واحد وعشرين سنة هكذا. قال:"ما أفتيت إلّا بعد أن شهد لي سبعون محنَّكًا أنّي أهل لذلك"؛ سبعون عالمًا من علماء المدينة شهد له أنّه أهل للفتوى، فأفتى و عمره واحد وعشرين سنة -رحمه الله تعالى- وقال عنه الشافعي رحمه الله: "إذا ذُكر العلماء فمالك النجم". هذا هو إمام المذهب مالك بن أنس.

وأمّا تاريخ هذا المذهب فقد مرّ بثلاثة أطوار:



دور النشوء

تتمثل بداية هذا الدور بتدريس الامام مالك رحمه الله تعالى وتصنيفه؛ لأنّ الامام الامام مالك رحمه الله كان يفتي ويدَّرس، وصنّف في الفقه والحديث كتابه الموطأ. كتاب الموطأ هو كتاب في الحديث وفي الفقه:

١- لأنّه يذكر الأحاديث ويبوب عليها، والتبويب هذا جزء من الفقه.

٢- الأمر الثاني أنّه يعلّق على الأحاديث، ولهذا إذا قرأت في الموطأ تجده يقول: "قال مالك وبهذا نأخذ"، "قال مالك والأمر المجتمع عليه عندنا -يعني عند أهل المدينة - كذا وكذا".

فهو كتاب فقهي وكتاب حديث. وهو من أعظم كتب الاسلام، حتى قال الشافعي:" ما تحت أديم السماء كتاب أصح من الموطأ". طبعًا الشافعي يقول هذا قبل تصنيف الصحيحين رحمة الله عليهم.

من طلاب الامام مالك ومن أكبر طلابه ومن أعظمهم نشرا لمذهب الامام مالك، هو عبدالرحمن بن القاسم المصري رحمه الله تعالى توفي سنة (١٩١هـ)، وأخذ عنه أسد بن الفرات، وأخذ عنه سحنون، ومجموعُ هؤلاء الثلاثة هم الذين صنّفوا المدونة.

(المدونة) الصحيح أنّه صنّفها سحنون، أخذًا عن أسد بن الفرات، عن مسائل عبدالرحمن بن القاسم تلميذ الامام مالك. والمدونة هذه هي الكتاب الأم في مذهب الامام مالك رحمه الله، فهي عمدة من جاء بعدهم على المدونة، وهي تسمى (مسائل سحنون) وهذا من علماء المالكية.

و سحنون هذا جاءه رجل سأله عن مسألة:

~ فقال (الامام سحنون):"إنّ مسألتك هذه يا ابن أخي مسألة مشكلة ومعضلة".

~ قال (السائل): "أنت لها يا امام"، يعني يشجعه، قال: "أنت لهذه المعضلات".

~ قال (الامام سحنون): "ليس بقولك هذا أعرض جسدي على النّار".

يعني المسألة هذه جنّة ونار، لا يتكلم الانسان في دين الله بغير علم.

الشاهد أنّ المدونة هذه صار عليها عمدة المالكية بعد تصنيفها، وهُذّبت وشرحث واختصرت. ورواية بن القاسم هي المُقدَّمة عند المالكية.

ومن طلاب الامام مالك رحمه الله لم نذكره هنا في المذكرة ابن وهب رحمه الله. وابن وهب توفي سنة (١٩٩هـ)، وأخرج له أصحاب الكتب الستة. وسبب موته قيل أنّهم كانوا يقرؤون عليه كتابه (الجامع)، فلما وصلوا إلى كتاب الأهوال - أهوال يوم القيامة- قال أخذه شيء كالغشي فحُمل إلى داره، فلم يزل كذلك إلى أن مات: من خوفه من أهوال يوم القيامة رحمة الله عليه.

ومن طلاب الامام مالك كذلك الامام أشهب المصري المتوفى سنة(٢٠٤هـ). (٢٠٤هـ) وفاة من؟ الشافعي وأيضًا حسن بن زياد اللؤلؤي. هذه من الأشياء التي تساعد في حفظ التواريخ، أن تربط لك عشرة من العلماء بتاريخ واحد.

دور التطور

انتقل المذهب بعد ذلك إلى دور التطور: بدأت تصنّف الكتب والمختصرات والشروح فكان في القيروان العالم ابن أبي زيد رحمه الله وصنّف كتابه (الرسالة)، وله كتب أخرى.

وكذلك في العراق -في بغداد- القاضي عبد الوهاب بن نصر رحمه الله تعالى وصنّف كتابه (التلقين). وهذا القاضي عبد الوهاب من فقهاء ومن قضاة المالكية، وله أبيات من الشعر، منها أنه خرج من بغداد بسبب الفقر وهو ينشد يقول:

بغداد دار لأهل المال طيبة ‏ ‏ ‏ وللمفاليس دار الضنك والضيق

ظللت حيران أمشي في أزّقتها ‏ ‏ ‏ كأنّني مصحف في بيت زنديق

رحمه الله، وله أبيات أخرى يعني نعرض عن ذكرها لهيبة المجلس، وإلاّ فله أبيات في الغزل ذكرها الشيخ علي الطنطاوي في كتابه "من غزل الفقهاء"، وعلى كل حال ارجعوا إليها.

ومن العلماء في هذا الدور في الأندلس الامام ابن عبد البر- أبو عمر يوسف ابن عبد البر -، وله كتاب (الكافي في فقه أهل المدينة)، وله كتب أخرى أيضًا. وهو من الأئمة المحققين له (كتاب الاستذكار)، وله كتاب (التمهيد)، وكلاهما من شروح الموطأ. التمهيد والاستذكار.. ولكن التمهيد يُعنى أصالة بالجانب الحديثي، والاستذكار يُعنى أصالة بالجانب الفقهي.

ومن كتب هذه المرحلة أيضًا كتب الامام الباجي -أبو الوليد الباجي-، وهذا من علماء الأندلس طاف الدنيا ورحل شرقا وغربا وهو امام محقق في الحديث وفي الأصول وفي الفقه. سافر لسنوات طويلة، ترك الأندلس ورحل في طلب العلم وما رجع إلى الأندلس إلّا وهو امام محقق. وفي فترة غيابه كان لابن حزم الأندلسي صولة وجولة، ولهذا كانت هناك قوة في زمن ابن حزم في مذهب أهل الظاهر في الأندلس، فما كان أحد من فقهاء المالكية في ذاك الزمان يستطيع أن يقف أمام ابن حزم في المناظرة.

مجالس المناظرة في عموم التاريخ الفقهي موجودة، وهي من أعظم ما يبني طالب العلم في الفقه. وليس المقصود بالمناظرة أنّ الواحد يعلو على الآخر. الآن المناظرات لا يقصد بها التفقه ومعرفة الحق، وانّما يقصد بها الظهور على الخصم. لكن كانت المناظرات الفقهية يقصد بها أول شيء التعليم؛ لأنّ المناظرة هذه جزء من تكوين طالب العلم؛ حينما يسمع اثنين من العلماء والفقهاء يتناظرون بالأدب والحجة والدليل والاستدلال، هذا يرد على هذا بالطريقة المنهجية العلمية، تتكون في شخصية طالب العلم ملكة عظيمة لا تحصل إلاّ بالمناظرة. وحتى كانوا يذكرون في تراجم العلماء، يقولوا فلان درس على فلان وتفقه عليه وأخذ عنه المناظرة، وكانت مجالس المناظرة تعقد بين الفقهاء رحمهم الله.

الشاهد: الباجي هذا لما رجع إلى الأندلس، وقف لابن حزم في المناظرة وصارت بينهما مناظرات كثيرة، وأخذ ورد. والمدرسة المالكية انتعشت في الأندلس بعودة الامام أبو الوليد الباجي. وله كتب منها (المنتقى شرح الموطأ)، ومنها أيضًا في أصول الفقه له كتاب (إحكام الفصول)، وله في الحديث وفي الرجال. كتب في عدّة فنون وهو عالم من العلماء المحققين.

ومن علماء هذه المرحلة الامام ابن رشد صاحب كتاب (المقدمات الممهدات). وبالمناسبة إذا أطلق ابن الرشد عند المالكية في تحقيق المذهب وتحريره وتصحيحه فيراد به ابن الرشد الجد؛ لأنّه عندنا ابن الرشد الجد وعندنا ابن الرشد الحفيد. والمذكور هنا هو ابن الرشد الجد.

الحفيد هو القاضي صاحب (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) وقد اشتغل -رحمه الله وعفا عنه- بشيء من الفلسفة. وأمّا الذي اعتمدت كتبه في تصحيح المذهب وتنقيحه وتحريره هو ابن الرشد الجد.

ومن العلماء في هذه المرحلة أيضًا القاضي عياض، له كتاب (المستنبطة) وله كتب كثيرة أيضًا. وهو عالم له شرح على صحيح مسلم، وله كتب متعددة.

مرحلة الاستقرار

بعد ذلك، بدأ المذهب ينتقل إلى مرحلة الاستقرار. صُنّفت الكتب والمختصرات، وبدأ دور الاستقرار يستقر فيه الصحيح من المذهب ويُعرف.

ومن علماء هذه المرحلة الامام ابن الحاجب وله (جامع الأمهات)، وله أيضًا مختصر في الفقه، وله مختصر في الأصول.

ومنهم الامام القرافي صاحب (الذخيرة) وهو كتاب موسع في الفقه المالكي، ويذكر أحيانا الفقه المقارن والاستدلال. والقرافي من علماء المالكية المحققين، له كتاب (الفروق) أيضًا، وله كتاب الذخيرة وغيرها.

وكذلك عندنا خليل، وخليل هذا هو المتن المعتمد الاعتماد النهائي عند المالكية. لمّا ألّف خليل مختصره بعد ذلك - حتى أنّ بعضهم من باب التجوز قال المالكية هؤلاء مفروض لا يسمون مالكية وانّما يقال خليليون - لأنّ هذا الكتاب (مختصر خليل) يمثل الاعتماد النهائي في القول المعتمد في مذهب الامام مالك رحمه الله.

ولهذا بعد مختصر خليل صارت الكتب كلها أو جلّها تدور في فلكه، شرح على مختصر خليل، حاشية على الشرح..

فمن شروح المختصر كتاب الحطاب المسمى بـ(مواهب الجليل في شرح مختصر خليل). ومن شروحه أيضا شرح الدردير. الدردير لديه شرح على مختصر خليل اسمه (الشرح الكبير على مختصر خليل). والدردير هذا عليه حاشية لـ(الدسوقي). الدسوقي وضع (الحاشية) على شرح الدردير على مختصر خليل.

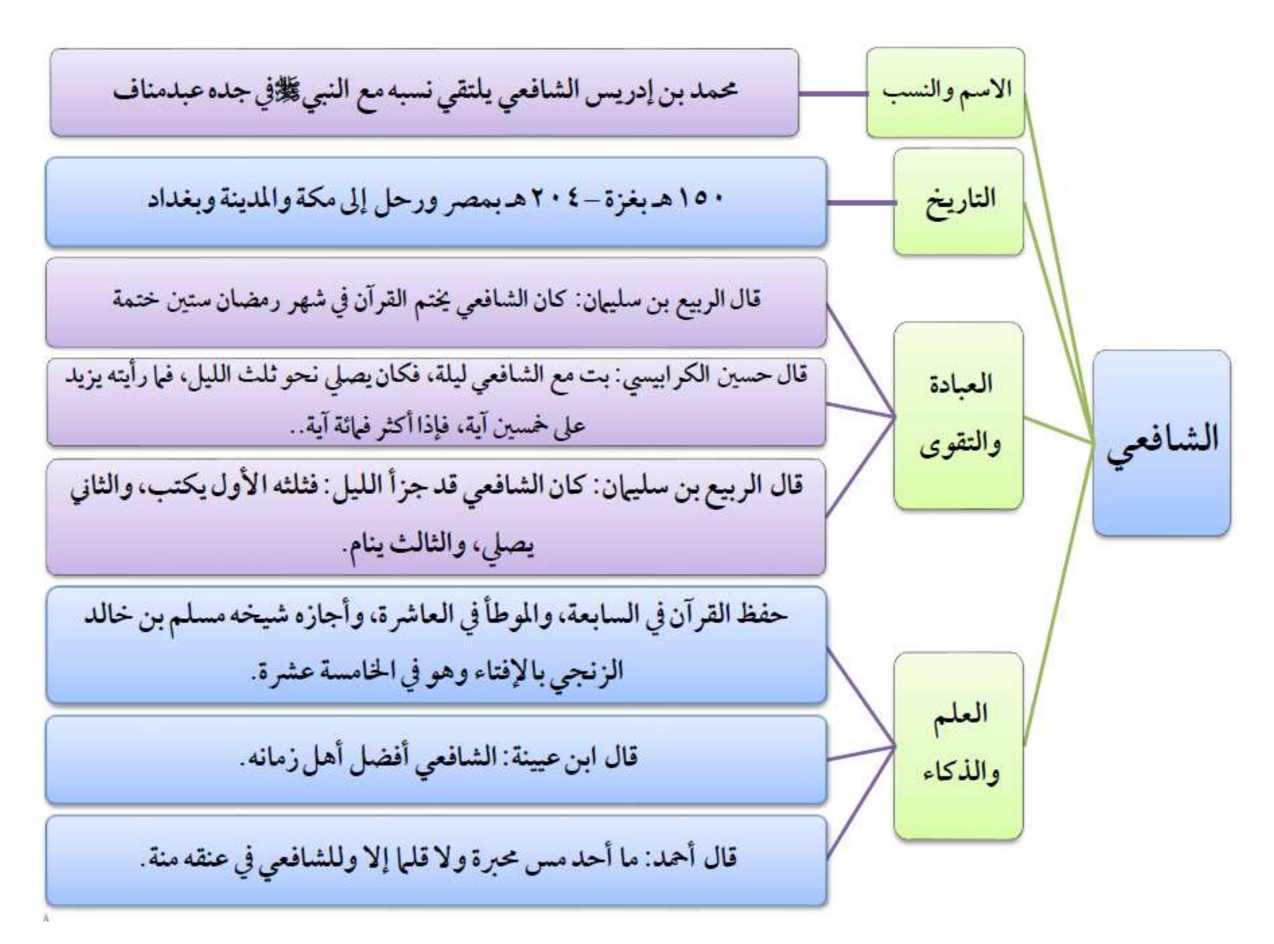
وليس بالضرورة كما قلت لكم حفظ أسماء الكتب، ليس بالضرورة أن تحفظها كلها بهذا الشكل جملة واحدة، ولكن المقصود الأساسي هو ما يحصل عندك من المعنى الاجمالي من المرور على هذه الكتب. حتى لو نسيت كتب ومؤلفين، سيبقى عندك معرفة اجمالية بذلك.

هذا ما يتعلق مذهب الامام مالك.

المقطع الخامس عشر والسادس عشر

الإمام الشافعي

الإمام مالك -رحمه الله تعالى- ممّن أخذ عنه وتفقه عليه الإمام الشافعي، طبعا الإمام الشافعي لم يقتصر على التفقه على مذهب الإمام مالك رحمه الله، وإنّما أخذ عن الإمام مالك وفقه أهل المدينة، وكذلك ذهب إلى بغداد وأخذ عن محمد بن الحسن الشيباني، ورحل أيضًا إلى اليمن رحمه الله تعالى.



الإسم والنسب والتاريخ

وهو محمد بن إدريس الشافعي، يلتقي نسبه مع النبي ﷺ في جدّه عبد مناف.

وهو مُطَلِبي، مُطَلِبي نسبةً إلى من؟ عبد المطلب؟ لأ، نسبةً إلى المُطلِب. ما علاقته بعبد المطلب؟ المطلب عمُّ عبد المطلب. فهو منسوبٌ إلى المطلب، والمُطلب هذا أخو هاشم. النبي عليه الصلاة والسلام، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم. هاشم هذا له أخ يقال له المطلب. وسمي عبد المطلب لأنّه رأوه معه، فظنوا أنّه عبده، فقالوا هذا عبد المطلب فعُرِفَ بذلك.

واحفظوا نسب النبي عليه الصلاة والسلام. وفيها أبيات تسهل عليكم هذا.

يقول:

آباءُ سيد الورى على الرُتب — هو ابن عبد الله عبد المطلب
وهاشمٍ عبد منافٍ ابن قصي — ابن كلابٍ مرةٍ كعبٍ لؤي
وغالبٍ وفهرٍ ابن مالك — والنضرُ قل كنانة كذلك
خزيمةٌ مدركةٌ إلياسُ — ومضرُ نزارهم قياس
ثم مَعدٌ بعده عدنان — وبعد ذلك اختلف الأعيان

متى وُلدَ الإمام الشافعي؟ ذكرنا أنه وُلد في السنة التي توفي فيها الإمام أبو حنيفة رحمه الله، وقد وُلد الإمام الشافعي في المشهور من الأقوال في غزة، في سنة (١٥٠هـ) وتوفي سنة (٢٠٤هـ) بمصر.

ورحل إلى مكة، وأخذ عن علماء مكة وهذه نشأته الأولى العلمية، أخذ عن علماء مكة وأخذ فقه أهل مكة من سفيان بن عيينه ومن غيره. ورحل أيضًا إلى المدينة وقرأ (المُوطأ) على الإمام مالك وحفظه. وكذلك رحل إلى بغداد، والتقى في بغداد بمحمد بن الحسن الشيباني وكما ذكرنا أنّه قال: "كَتبتُ عن محمد بن الحسن وِقرَ بعير"، وِقرَ بعير، ما كتبه من مجالس ومن كُتب محمد بن الحسن الشيباني رحمه الله.

الإمام الشافعي رحمه الله تعالى جمع بين مدرسة التي تسمى مدرسة الحجاز ومدرسة العراق، وكان في شيء من المنافسة بين هاتين المدرستين - وسيأتي معنا الإشارة إلى هذا - مدرسة الحجاز يقولون: نحن أهل الحجاز عندنا أكثر الصحابة، وفينا كان النبي ﷺ. مدرسة العراق - تعرفون التواصل بذاك الزمان لم يكن كما هو عليه الحال اليوم - كانت تقول عندنا الخلافة في زمن علي رضي الله عنه، وأخذنا الفقه عن ابن مسعود. كان فيه شيء من التنافس بين هاتين المدرستين. جاء الإمام الشافعي وجمع بين هاتين المدرستين، ويعني تقدر تقول قرَّب بين فقه هاتين المدرستين وسيأتي الإشارة إلى ذلك بشيء من الإيجاز.

العبادة والتقوى

الإمام الشافعي رحمه الله كان من العبَّاد، مع علمه وفقهه واجتهاده كان عابداً، حتى إنّه كان يختم القرآن في رمضان ستين ختمة. مرَّة في الليل ومرَّة في النهار وفي كل يوم رحمه الله تعالى. وكان الحسين بن الكرابيسي يقول: "بِتُّ مع الشافعي ليلة فكان يصلي نحو ثلث الليل، فما رأيته يزيد على خمسين آية فإذا أكثر فمائة آية" يرددها، ثلث الليل خمسين آية يرددها و يكررها رحمه الله تعالى.

طيب بالنسبة للإمام الشافعي رحمه الله تعالى، قال الربيع بن سليمان: "كان الشافعي قد جزّأ الليل ثلاثة أجزاء: ثلث يكتب، وثلث يصلي، وثلث ينام "،وهذا الربيع بن سليمان هو تلميذ الإمام الشافعي، وسيأتي ذكر تلاميذ الإمام الشافعي، وهذا الربيع بن سليمان هو أبرز تلاميذ الشافعي الذين نقلوا فقهه، هو الذي روى عنه: (الرسالة) وروى عنه كتاب (الأم).

العلم والذكاء

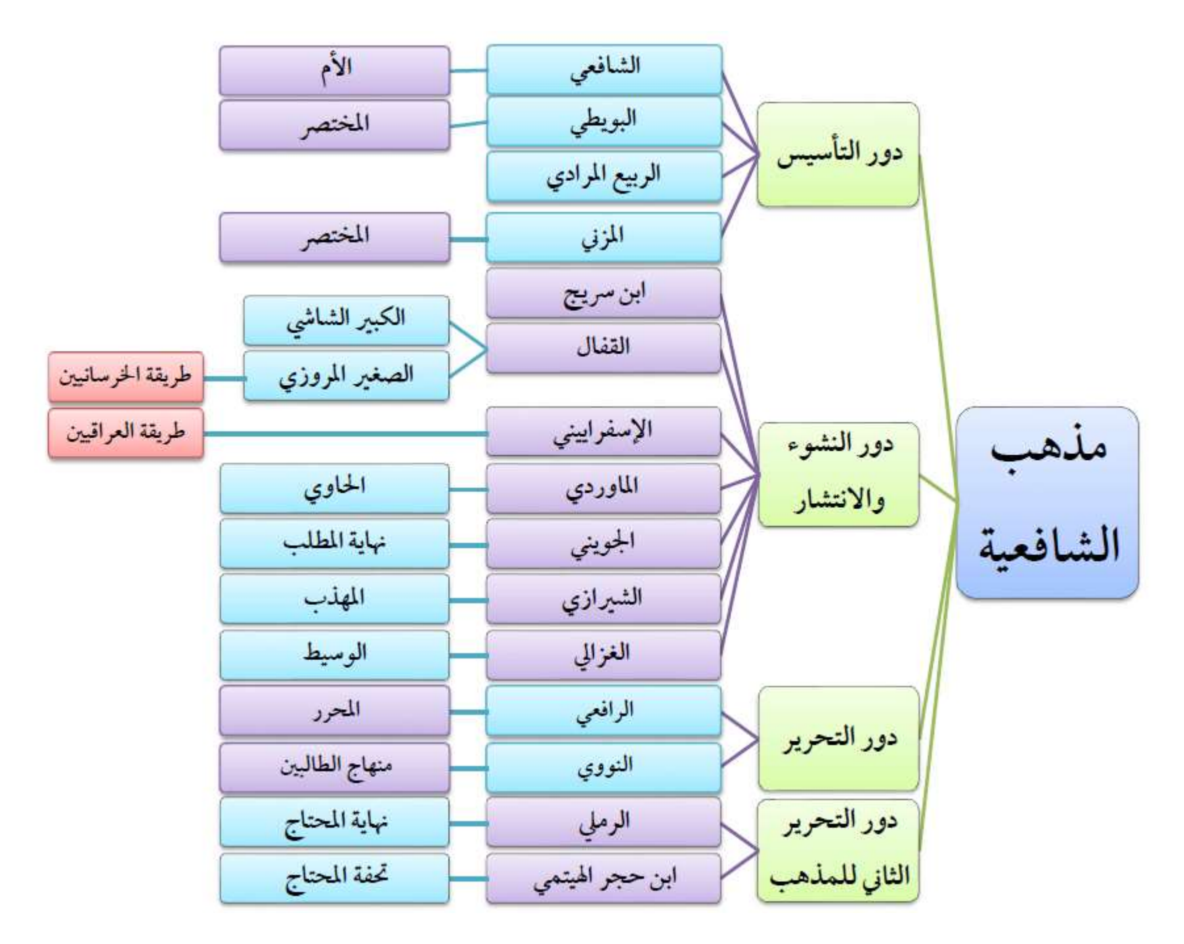
كان الشافعي ذكيًا فطنًا، حفظ القرآن في السابعة، وحفظ الموطأ في العاشرة، وأجازه شيخه مسلم بن خالد الزنجي بالافتاء وهو في الخامسة عشرة، وهذا من شيوخه في مكة. وعمره خمسة عشر سنة أجازة شيخه قال له أنت أهل للإفتاء.

وقال الإمام ابن عيينة، سفيان بن عيينة شيخ الشافعي يقول: "الشافعي أفضلُ أهل زمانه". سفيان بن عيينة من شيوخ الشافعي، وشهد له يقول أفضل أهل زمانه. وقال الإمام أحمد : "ما أحد مسَّ محبرةً ولا قلماً إلاّ وللشافعي في عُنقه مِنَّه". بل الإمام أحمد يُروَى عنه أنّه قال: "الشافعي كالشمس للدنيا وكالعافية للنّاس فهل عنهما من غنى"، رحمه الله تعالى وغفر له ورحمة.

الشافعي رحمه الله مرَّ مذهبه بمرحلتين، هاتان المرحلتان هي المذهب القديم والمذهب الجديد، وسنتعرف على هذا إن شاء الله الدرس القادم.

المذهب الشافعي

فقد سبق معنا الكلام عن الإمام الشافعي رحمه الله، وعرفنا فضله وأنّه من أئمة الدين في العبادة، وفي العلم، وفي الذكاء رحمه الله. ونحن اليوم بإذن الله عز وجل في هذا الدرس نتعرض لما يتعلق بمذهب الإمام الشافعي رحمه الله تعالى.



المذهب الشافعي مرَّ بمرحلتين في نفس حياة الإمام الشافعي:

- الإمام الشافعي لمّا ذهب إلى بغداد صنف كُتباً في الفقه وفي الأصول وعرفت هذه الكتب بالمذهب القديم.
- لمّا انتقل بعد ذلك إلى مصر، أعاد تصنيف بعض هذه الكتب وعرفت المصنفات والآراء والاجتهادات التي ذهب إليها في مصر بالمذهب الجديد.

ولا شك أنّ المذهب القديم والمذهب الجديد لا يعني أنّ الإمام الشافعي ألغى كل فقههُ في المرحلة السابقة ثم أتى بفقهٍ جديد يختلف، لا، يعني الاختلاف في بعض الإجتهادات وبعض المسائل. والمعتمد عند الشافعية في ذلك هو المذهب الجديد وهو الذي صنفه في كتابه (الرسالة) وتسمى (الرسالة الجديدة) وكذلك في كتابه (الأم).

ومن مميزات مذهب الشافعي - وهذه حقيقة من الأشياء التي يغبطون عليها الشافعية-، أنّ إمامهم الشافعي صنَّف في الأصول وصنَّف في الفقه. ومن مناقب الشافعي رحمه الله - ومناقب الشافعي كثيرة وصنّف فيها العلماء- أنّه أول من صنَّف في علم أصول الفقه، في كتابه (الرسالة).

دور التأسيس

ولهذا نجد دور التأسيس يبدأ من الإمام الشافعي نفسه في تصنيفه كتاب (الأم) للإمام الشافعي، ورواه عنه تلميذه الربيع بن سليمان المُرادي، بالمناسبة الربيع من تلاميذ الشافعي وهناك إثنان، هناك الربيع المُرادِي وهو الأشهر والراوي لكتب الشافعي، وفيهم الربيع الجيزي (نسبة إلى الجيزة) المصري رحمه الله.

على كل حال الإمام الشافعي صنَّف كتاب الأم في الفقه، وهو كتاب عظيم جداً يمتلأ فقهاً وعلماً. ومن الطرائف يقول واحد في معرض الكتاب اشترى كثير من النساء كتاب الأم، يحسبون أنّه عن الأم ،يعني يتكلم عن الأم وفضلها وكذا.

طيب من تلاميذ الإمام الشافعي في هذه المرحلة - مرحلة تأسيس المذهب - صنَّف بعض تلاميذ الشافعي مختصرات في الفقه، اختصرو فيها فقه الشافعي منها: (مختصر البُويطِي) ومنها (مختصر المُزني) وقد طُبعا؛ كتاب مختصر المزُني وكتاب مختصر البُويطِي. وأمّا الربيع بن سليمان المُرادِي فهذا هو راوي كتب الشافعي فهو الذي روى عنه كتاب (الأم) وروى كتاب (الرسالة).

بالمناسبة إذا قرأت في كتاب (الأم) وكتاب (الرسالة) تجد في الكتاب يقول "حدثنا الشافعي"، الكتاب للشافعي وإلاّ ما هو للشافعي؟ كيف يقول حدثنا الشافعي؟ فبعض النّاس صنَّف كتابًا اسمه (تصحيح أكبر خطأ في تاريخ التشريع: الأم ليس للإمام الشافعي)..لم؟ قال لك: قرأنا كتاب الأم للشافعي فوجدناه يقول: "حدثنا الشافعي"، "قال الشافعي".

نقول لأنّ رَاوِي هذه الكتب - وهو منهج المتقدمين في التصنيف أنّهم يثبتون اسم الراوي - فتجد في أول كتاب المُوطأ برواية يحيى بن يحيى، "حدّثنا يحيى بن يحيي قال: حدّثنا مالك"، أو " أخبرنا مالك"، والمُوطأ لمالك بلا شك، وكذلك الأم للشافعي بلا شك. حتى قال بعض شيوخنا نسبة الأم للإمام الشافعي أشهر من نسبة ذلك الرجل إلى أمه، فهذا أمر لا شك فيه.

مرحلة النشوء والانتشار

طبعا بعد ذلك جاءت مرحلة النشوء والانتشار، وصُنفت فيها بعض الكتب ومن أعلام هذه المرحلة: ابن سُرَيج والقَفَّال، وعندنا القَفَّال الكبير وهو القَفَّال الشَاشِي، وعندنا القَفَّال الصغير وهو القَفَّال المَروَزِي، وكذلك في هذه المرحلة الإسفراييني رحمه الله.

ووجدت في هذه المرحلة طريقتان في المذهب الشافعي: الطريقة الأولى تعرف بطريقة الخراسانيين، والطريقة الثانية تعرف بطريقة العراقيين.

وممّن صنَّف في هذه المرحلة أيضًا الإمام المَاوردِي. والإمام الماوردي الشافعي صنف كتابه (الحاوي الكبير) وهو كتاب عظيم، يرجع إليه من أراد أن يقف على أدلة الشافعية واستدلالاتهم، فمن مظنة ذلك كتاب (الحاوي) للماوردي.

وكذلك من العلماء في هذه المرحلة الجُويني صاحب (نهاية المَطلَب)، وهو من؟ عندنا الجُوينِي أبو محمد الجُوينِي، وعندنا ابنه أبو المعالي المعروف بإمام الحرمين.

وكذلك عندنا الشيرازي، أبو إسحاق الشيرازي وله كتب في الأصول منها (اللُمَع) و(شرح اللُمَع)، وعنده أيضًا كتابٌ في الفقه وهو (المُهَذَب) للشيرازي، وشرحه الإمام النووي في كتابه المعروف الكبير (المجموع شرح المُهذَب).

وكتاب المجموع هذا ألفه النووي ولم يكمله رحمه الله، وأكمله بعده السُبكِي ثُمّ من المعاصرين أكمله المُطِيعِي. فتعاقب عليه ثلاثة: النووي والسُبكِي والمُطِيعِي. المُطِيعِي، من هو؟ اسمه محمد نجيب المُطِيعِي. في مُطِيعِي ثاني حنفي، من علماء مصر اسمه محمد بخيت المُطِيعِي - وهذا يسمى عندهم، محمد نجيب ومحمد بخيت، يسمى عند المحدثين المؤتلف والمختلف لأنّ نجيب وبخيت كتابتها واحدة لو كتبتها بدون النقاط - على كل حال، المجموع أكمله محمد نجيب المُطِيعِي.

ومن علماء هذه المرحلة الغزالي، والغزالي له كتب في أصول الفقه من أشهرها: (المُستَصفَى)، وله كتب في الفقه عنده (الوجيز) و(الوسيط) و(البسيط)، وأطولها هو البسيط.

هذا ما يتعلق بدور النشوء والانتشار.

دور التحرير

جاء بعد ذلك دور تحرير المذهب، ويسمى التحرير الأول للمذهب، على يد الإمامين النووي والرافعي، وكان المذهب عند الشافعية المعتمد هو ما أتفق عليه النووي والرافعي، فإذا اتّفقوا على شيء فهو المعتمد في مذهب الشافعية.

الرافعي صنَّف كتابه (المحرر) وله أيضًا كتابه الموسع وهو (فتح العزيز شرح الوجيز).

وكذلك صنف الإمام النووي كتبًا كثيرة في الفقه الشافعي من ضمنها (منهاج الطالبين). ومنهاج الطالبين هذا متن اعتمده الشافعية وساروا في شرحه، وداروا في فلكه، وكتبت عليه شروح متعددة.

الإمام النووي صنّف (منهاج الطالبين)، وصنف (روضة الطالبين)، وصنف (المجموع). منهاج الطالبين هذا الذي يعرف بالمنهاج عند فقهاء الشافعية، شرحه الشافعية بعد ذلك بشروح كثيرة جدًا منها : تحفة المحتاج، ومغني المحتاج، ونهاية المحتاج، -نزيد ولا ما يحتاج-. على كل حال، وعمدة المحتاج، كتب كثيرة في شرح المنهاج.

هذا بالنسبة للمرحلة التي تسمى دور التحرير.

دور التحرير الثاني

بعد ذلك جاءت دور التحرير الثاني للمذهب على يد العالمين وهما الرَّمِلِي، وابن حجر الهيثمي.

ابن حجر الهيثمي والرملي، هاذان العالمان هما اللذان اعتمد الشافعية المتأخرون على أقوالهما، فالرملي صنف شرحًا على (المنهاج) سماه (نهاية المحتاج) ،وابن حجر صنف شرحاً على (المنهاج) سمّاه (تحفة المحتاج). وابن حجر هذا هو ابن حجر الهيثمي المكي وليس ابن حجر العسقلاني.

هذا ما يتعلق بمراحل مذهب الإمام الشافعي رحمه الله تعالى.

المقطع السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر والعشرون

الإمام أحمد

الإمام أحمد هو ممّن أخذ عن الإمام الشافعي، واستفاد منه، وتفقه عليه. وإن كانت العلاقة بين الإمام أحمد والإمام الشافعي ليست علاقة تلمذة مَحْضة، يعني لا نستطيعُ أن نقول أنّ الإمام أحمد تلميذ من أصحاب الشافعي، لأنّه أخذ عنه وهو عالمٌ فقيه، لكنّه استفاد بلا شك في بناء الشخصية الفقهية له رحمه الله.

وقد حثَّ أصحاب الحديث على ذلك، حتى رُوِيَ عنه أنّه كان يأخذ ببغلة الشافعي وهو يمشي معهم، فيقول له أصحاب الحديث : "تأخذ عن الشافعي وعندك أسانيد أعلى" - يعني تعرف أهل الحديث يحرصون على علوّ الإسناد- فقال لهم: "إذا فاتك إسناد فُلان بعلوٍ، ترويه بنزول - تأخذ عن أحد تلاميذه -، وأمّا إذا فاتكَ عقلُ هذا، فلا يمكن أن تجد عنه عِوَضاً وبدلاً" .



الإسم والنسب والتاريخ

وهو أحمد ابن محمد ابن حنبل الشَّيْباني، ويسمى أحمد بن حنبل نسبةً إلى جدّه، وإلاّ فاسمه أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني رحمه الله. ولد سنة ١٦٤هـ ، وتوفي في سنة ٢٤١هـ.

وقد رحل إلى كل بلدان الدنيا، كل ما يخطر عليك من البلدان التي فيها علمٌ وحديث رحل إليها الإمام أحمد رحمه الله في طلب الحديث، حتّى قال ابن الجوزي رحمه الله: "طاف أحمد الدنيا مرتين في جمع المُسند" رحمه الله تعالى رحمة واسعة. ولهذا فهو أكثر الأئمة من جهة كثرة الرواية ومن جهة مادة الآثار التي اجتمعت له، حتى قال الإمام ابن رجب رحمه الله يقول : "ولا يُعلَمُ عن الصحابة أو التابعين أثر، إلا وقد أحاط به الإمام أحمد رحمه الله علماً".

العبادة والتقوى

وأمّا عبادته وتقواه، فهو من أكابر الزُّهاد والعبَّاد، وسيأتي معنا قول الشافعي في هذا.

يقول عبد الله بن أحمد ابن الإمام أحمد رحمه الله يقول: "كان أبي يصلي في كل يوم وليلة ثلاثمائة ركعة، فلمَّا مرض من تلك الأسواط - بعد ما ضرب و جُلد - لمّا مرض من تلك الأسواط أضعفته، فكان يصلي في كل يوم وليلة مائة وخمسين ركعة". هذا بعد ما أتعبه كبر سنه وجُلِد، صار يصلي مائة وخمسين ركعة رحمه الله في كل يوم وليلة.

قال أحمد رحمه الله يقول : "ما كتبت حديثاً إلا وقد عَمِلتُ به، حتى مرَّ بي أنّ النبي ﷺ احتجم وأعطى أبا طيبة ديناراً، فأعطيتُ الحجَّام ديناراً حين احتجمت". وهذا يدل على أنّهم يقصدون بالعلم العمل، ولا يقصدون بذلك كثرة الرواية والتكاثر أمام الناس بالمروي والمحفوظ.

لمّا الإمام أحمد يقول: "ما كتبت حديثاً إلّا وقد عملت به"؛ الإمام أحمد كم يحفظ من الحديث؟ يحفظ ألف الف حديث، ألف ألف يعني مليون حديث. وقال الربيع: "قال لنا الشافعي: أحمد إمام في ثمانِ خِصال - يشهد له الإمام الشافعي رحمه الله تعالى بذلك (ثمانِ خصال) يقول - إمامٌ في الحديث، إمامٌ في الفقه، إمامٌ في اللغة، إمامٌ في القرآن، إمامٌ في الفقر، إمامٌ في الزهد، إمامٌ في الورع، إمامٌ في السُّنة". وحسبك بهذه الشهادة من الإمام الشافعي رحمه الله تعالى . وهذا يدل على أنّ الإمام أحمد رحمه الله جمع الإمامة في مجالات الإمامة كلها. ولم يكن مثلاً مُقتصِراً على الحديث؛ لأن بعض الناس يظن أن أحمد بن حنبل مُحدِّث وليس بفقيه، وهذا غلط كبير فالإمام أحمد من أكابر الفُقهاء، ومن أكابر المجتهدين، وله في الفقه باعٌ طويل وقِدحٌ مُعلًّا رحمه الله تعالى.

العلم والذكاء

وأمّا علمه وذكاءه، فيقول عبد الله بن أحمد: قال لي أبو زُرْعَة: "أبوك يحفظ ألف ألف حديث" ، فقيل له: "وما يُدريك؟" -ما عرّفك يا أبا زرعة- قال :" ذاكرته فأخذت عليه الأبواب". يعني سألته في أبواب الحديث كلها، أسأله عن حديث فلان

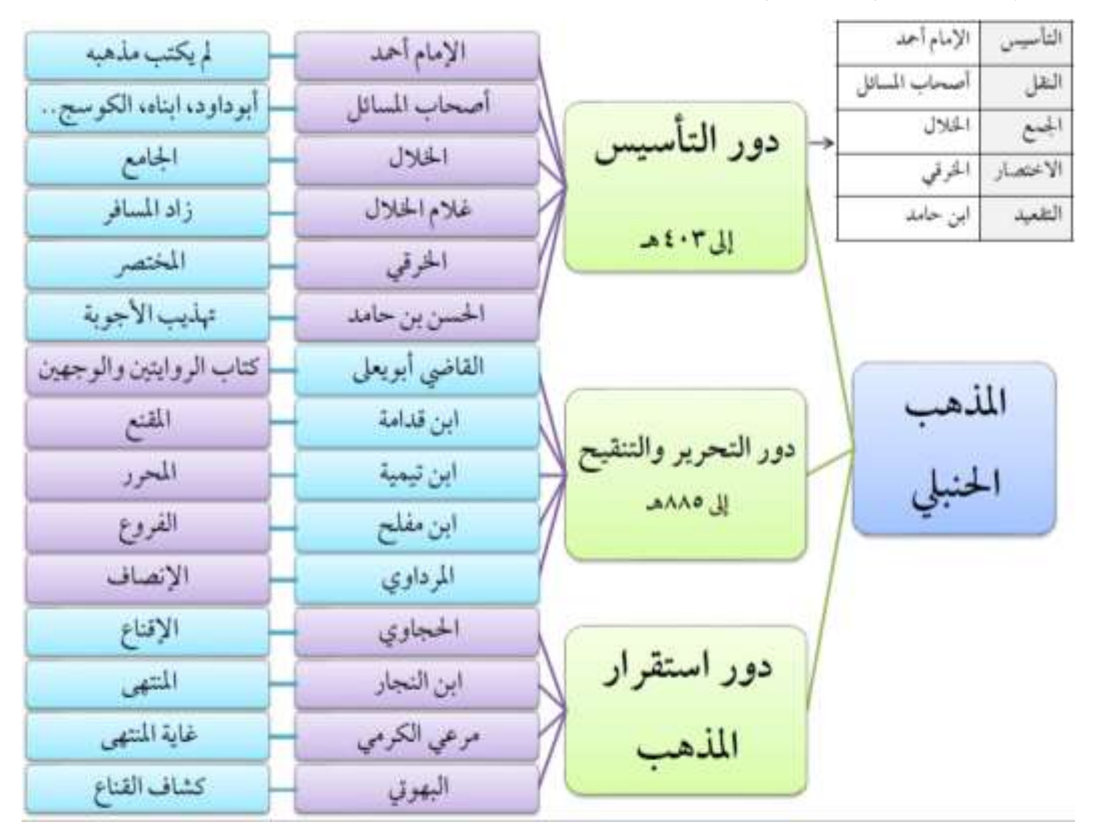
فيأتي به، أسأله عن حديث فلان فيأتي به. فعمل مقياس (إحصاء) لمن حفظ في كل هذه الأبواب بهذه الطريقة، فلا يمكن إلّا أن يكون حافظاً لألف ألف حديث، رحمه الله.

وقال عبد الرزاق الصنعاني: "ما رأيت أحداً أفقه ولا أورع من أحمد بن حنبل". وقال الشافعي رحمه الله "خرجت من بغداد، فما خلَّفتُ بها رجل أفضل ولا أعلم ولا أفقه ولا أتقى من أحمد بن حنبل". وهذه الشهادة من الشافعي يشهد له بكل هذه الأمور. والشافعي رحمه الله قال:" يا أبا عبد الله إذا صحَّ عندكم الحديث فأخبرونا حتى نرجع إليه، أنتم أعلم بالأخبار الصِّحاح منّا". وهذه أيضا من الشهادات الدّالة على فضله وإمامته رحمه الله تعالى.

ويأتيك واحد اليوم واصل في كتاب (عمدة الأحكام) إلى نصف كتاب الصلاة، فتقول له الإمام أحمد يقول كذا، يقول لا..ما بلغه الحديث، يعني بلغك أنت! وهذا للأسف موجود اليوم؛ بعض النّاس عنده جرأة على الأئمة، لأنّه هذا صاحبنا عنده "المكتبة الشاملة" وعنده جوجل، يدخل على موقع على الإنترنت يشوف الحديث الصحيح من الضعيف، ثمّ بعد ذلك يبدأ يحاكم الأئمة. يقول لك: أحمد بن حنبل خالف النّص في هذه المسألة، وخالف السنة في هذه المسألة. طيب لماذا خالف؟ يقول لك: ما بلغه الحديث، والحديث مشهور ويحفظه الأطفال في الكتاتيب، يقول لك: "ما بلغ أحمد بن حنبل"! أحمد بن حنبل يمكن يروي هذا الحديث من مائة طريق، ولم تركه؟ هو لم يتركه لكنّه فهمه على وجه من الأوجه. وسيأتي معنا أسباب اختلاف العلماء.

المذهب الحنبلي (المتقدمين)

مذهب الإمام أحمد رحمه الله مرَّ بعدة مراحل :



دور التأسيس

المرحلة الأولى هي مرحلة التأسيس التي بدأت من عند الإمام أحمد نفسه. لكن هل الإمام أحمد كتب مذهبه؟ صنّف في الفقه؟ لا، لم يصنف كتاباً في الفقه.

- يعني الإمام الشافعي سبق معنا أنه صنف في الفقه.
- الإمام مالك صنف كتابه (الموطأ)، وفيه شيء كبير من الفقه.
- الإمام أبو حنيفة هل صنف مذهبه؟ كتب؟ يُرْوَى هذا، لكن لا يوجد، يعني الرواية في هذا حتى فيها نظر عند المؤرخين؛ بعضهم يقول: لا يثبت أنه صنف في الفقه، وإنما يثبت له كتاب (الفقه الأكبر) في العقيدة، لكن صنّف مذهبه في حياته على يد طلابه في الحلقة، على يد محمد بن الحسن الشيباني، وكذلك القاضي أبو يوسف.
- أمّا الإمام أحمد فلم يدون مذهبه. هو كتب "المسند" من أعظم كتب الحديث، لكنّه لم يصنف في الفقه.

لكن ما الذي صُنِّف عنه في الفقه؟ صُنِّف عنه في الفقه الفتاوي التي كان يفتي بها فيكتبها عنه طلابه. ويُسمَّون (أصحاب المسائل)؛ كانوا يسألون الإمام أحمد عن المسائل ويُصنفون. وأصحاب المسائل أكثر من مائة نفس، عدد كبير روى عن الإمام أحمد المسائل، لكن المكثرون منهم محصورون.

ووُجِد من مسائل الإمام أحمد موجود ومطبوع إلى اليوم عندنا (مسائل الإمام أبي داود)، الإمام أبو داود صاحب السنن: "سنن أبي داود"، تسمعون سنن أبي داود، رواه أبو داود. هذا أبو داود من تلاميذ الإمام أحمد، وكتب عنه المسائل في الفقه، وكتب عنه سؤالات في الحديث. وهذا من فقه السلف رضوان الله عليهم، يعني أنت تتكلم عن إمام عظيم مثل أبي داود صاحب السنن يكتب فقه أحمد. وهذا يدل على فقههم رحمهم الله أنّهم يعرفون للأئمة قدرهم .

الآن يأتيك واحد يقول: يا أخي هم رجال ونحن رجال، لم نكتب فقههم؟ نأخذ من الكتاب والسنة مباشرة. أبو داود صاحب السنن التي تُتْلَي وتُرْوَى في مساجد الناس وفي كتب الإسلام إلى اليوم، يكتب فقه أحمد، ويسأل أحمد عن المسائل الفقهية ويدونها وتُروَى عنه وينقلها للناس، وهذا من فقههم رضوان الله عليهم.

أمّا اليوم بعض الطلبة مجرد ما يختّم الأربعين النووية بحفظ ضعيف يقول: يا أخي هم رجال، أنا ترجَّح لي في هذه مسألة كذا. ويريد أن يجعل لنفسه مذهباً مستقلاً، يعني له اختيارات. وهذا غلط كبير أن يتربى طالب العلم على هذا.

إذا نظرت إلى أولئك: يعني محمد بن الحسن الشيباني، وأبو يوسف، أئمة من أكابر الأئمة، لكنَّ فقههم معدودٌ ضمن مظلّة مدرسة الإمام أبي حنيفة.

أبو داود صاحب السنن أيضاً كتب عن الإمام أحمد مسائل. أيضا عندنا من أصحاب المسائل الإمام أبو داود، وعندنا من أصحاب المسائل أيضاً عبد الله وصالح. صالح وعبد الله هؤلاء أولاد الإمام أحمد: ابنه صالح وابنه عبد الله، وكتبوا عنه مسائل مطبوعة وموجودة، مسائل عبد الله ومسائل صالح.

كذلك ممّن كتب المسائل عن الإمام أحمد الكوسج، إسحاق بن منصور الكوسج وهي مطبوعة أيضاً. كذلك ممّن كتب المسائل حرب ابن إسماعيل الكِرْمَاني، وكذلك من المسائل المطبوعة مسائل ابن هانيء، وهي موجودة مطبوعة.

إذًا عندنا كتب المسائل المطبوعة؛ عندنا أبو داوود ،صالح ، وعبد الله، والكوسج ، وابن هانيء. ويوجد كتب من كتب المسائل، وُجِد أجزاء منها.

بعد كتب المسائل هذه، جاء رجل من أئمة المذهب الحنبلي، له على الحنابلة منة عظيمة اسمه أبو بكر الخلَّال. ماذا عمل هذا أبو بكر الخلَّال؟ جمع كتب المسائل هذه كلها في كتاب واحد يسمى (الجامع لعلوم الإمام أحمد)، يسمى جامع الخلَّال، ولكن للأسف الشديد من الأمور التي يُبكى عليها أن هذا الكتاب لم يصل إلينا، وصلت إلينا منه أجزاء يسيرة مثل الترجّل والوقوف وغيرها، ولكن الكتاب مفقود .

هناك جهد قام به بعض الباحثين في العصر الحاضر، وهو كتاب عظيم ينبغي أن يُحتفى به سمّوه (الجامع لعلوم الإمام أحمد) في نحوٍ من عشرين مجلد، جمعوا فيه كتب المسائل مرة أخرى لكن من خلال الكتب المطبوعة وكتب الحنابلة وغير الحنابلة أيضاً؛ جمعوا جميع ما رُوي عن الإمام أحمد من الألفاظ في الفقه وفي غير الفقه؛ يعني في الفقه وفي الحديث، وفي العقيدة، وفي الرجال وغير ذلك. وهو كتاب مهم ومفيد لكل طالب علم يتفقه على مذهب الإمام أحمد رحمه الله.

هناك بعد الخلَّال، جاء غلام الخلَّال، تلميذ الخلَّال المعروف بغلام الخلَّال. اسمه أبو بكر عبد العزيز، هكذا تقرأون في كتب الحنابلة: "قال أبو بكر عبد العزيز" هو غلام الخلّال، له كتاب اسمه (زاد المسافر).

بعد ذلك جاء الإمام الخِرَقي، أبو القاسم الخِرَقِي، حسين خِرقي رحمه الله، وصنّف كتابه (المختصر). اختصر فيه كل الكتب الموجودة قبل ذلك؛ المسائل، الكتب المتناثرة، والكبيرة. فجاء الخِرَقي وصنَّف كتاب مختصر تعليمي صار يُقرأ في المساجد ويحفظه المُتَفَقِّهة في المذهب الحنبلي. واشتغل الحنابلة بعد ذلك بشرحه، وشرحه عدد من أهل العلم ومن أبرزهم ومأشرهم الإمام بن قدامة المقدسي له كتاب في شرح مختصر الخرَقي اسمه (المغني). تعرفون المغني؟ يقول بعضهم المغني عمّا سواه يغني. ولكن بالحقيقة أنه لا يوجد كتاب يغني عن كل الكتب، لا يمكن تقول المغني يغني عن غيره، لكن على سبيل أنه في الغالب، يقولون المغني يغني. فهذا (المغني) هو شرح على مختصر الخرقي رحمه الله.

وبعد ذلك في نفس الفترة، جاء الإمام الحسن ابن حامد. والحسن بن حامد هذا صنف كتباً في الفقه، وصنّف كتاباً في أصول الفقه: في طريقة فهم كلام الإمام أحمد؛ يعني إذا قال الإمام أحمد "لا ينبغي"، ما المقصود بها؟ هل هو الكراهة وإلا التحريم؟ إذا قال "أكرهه"! صنَّف كتاب وهو مطبوع في مجلدين اسمه (تهذيب الأجوبة).

التأسيس	الإمام أحمد
النقل	أصحاب المسائل
الجمع	الخلال
الاختصار	الخرقي
التقعيد	ابن حامد

بعد ذلك أيها الأخوة الكرام و تلاحظ في الجدول عندك في اليمين :

١. مرحلة التأسيس: تتمثل في الإمام أحمد .
٢. مرحلة النقل - نقل المذهب: أصحاب المسائل.
٣. ثمّ جمع المذهب: قام به الخلَّال.
٤. ثمّ اختصار المذهب: قام به الخِرَقي.
٥. ثمّ التَّقْعِيد - الاستنباط والفهم -: قام به "الحسن ابن حامد رحمه الله.

جاءت مرحلة التحرير والتنقيح للمذهب: والتي بدأت بالقاضي أبي علاء رحمه الله، وقد كَتب كُتباً كثيرة في الفقه وفي الأصول، من كتبه في أصول الفقه (كتاب العُدَّة)، ومن كتبه في الفقه (كتاب الروايتين والوجهين)، وله كتب كثيرة منها المُطوَّل ومنها المختصر، منها المطول مثلاً (كتاب التعليقة الكبيرة) وغيره من الكتب .

أمّا ما يتعلق بابن قدامة رحمه الله تعالى، فإنّه يحتاج إلى شيء من الكلام المطوّل، نتناوله بإذن الله عز وجل في الدرس القادم ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يرحم هؤلاء الأئمة وأن يجمعنا بهم في جنات النعيم إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

المذهب الحنبلي (المتوسطين)

كنّا قد وصلنا في الدرس الماضي إلى مذهب الإمام أحمد رحمه الله تعالى، وذكرنا أنّ مذهب الإمام أحمد مرّ بعدة مراحل.

المرحلة الأولى وهي مرحلة تأسيس المذهب، وتأسيس المذهب قام به عدد من أهل العلم، طبعا التأسيس -مؤسس المذهب هو الإمام أحمد رحمة الله-، ثم بعد ذلك نُقلت مسائله عن طريق أصحابه وطلابه (أصحاب المسائل) وهي كتب مطبوعة، يعني عدد من كتب المسائل مطبوعة، ومن أراد أن يقف على تراجم هؤلاء العلماء فليرجع إلى طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى، يقف فيه على تراجم أصحاب الإمام وتلاميذ الإمام أحمد رحمهم الله، وقد ذكرنا أن منهم: الإمام أبا داود السجستاني صاحب السنن، ومنهم صالح بن الإمام أحمد، ومنهم عبد الله بن الإمام أحمد، ومنهم الكوسج إسحاق بن منصور الكوسج، ومنهم ابن هانئ، ومنهم أيضا حرب بن إسماعيل الكرماني، وغيرهم. وكتب المسائل هذه التي ذكرناها مطبوعة، بعضها طبع عدة طبعات.

وبعد ذلك جاء الخلال وجمع هذه الكتب في كتاب واحد سماها (الجامع لعلوم الإمام أحمد) وهو مفقود، طبعت منه أجزاء يسيرة التي وجدت، كالترجل والوقوف، وأكثره مفقود. ولكن قلنا لكم أن هناك جهد معاصر قام به الأستاذ خالد الربّاط ومعه مجموعة من الباحثين وجمعوا جمعا نفيسا وكتابا عظيما، وهو من أعظم الخدمات التي قدمت إلى علم الإمام أحمد رحمه الله في العصر الحاضر، سموه أيضا (الجامع لعلوم الإمام أحمد)، وهو كتاب نفيس جدا.

بعد ذلك جاء الغلام الخلال، ثم جاء الخِرَقي فألف كتابا مختصرا في فقه الإمام أحمد، وهو المعروف بـ(مختصر الخِرَقي). وبعد ذلك قلنا إن الإمام الحسن بن حامد صنف كتاب (تهذيب الأجوبة) وهي مرحلة التقعيد.

دور التحرير والتنقيح

ننتقل إلى دور التحرير والتنقيح في المذهب الذي بدأ على يد القاضي أبي يعلى، وبالمناسبة: كتب الحنابلة إذا قرأت فيها (قال القاضي) فالمراد به القاضي أبو يعلى رحمة الله تعالى، ومن كتبه كتاب (الروايتين والوجهين)، وله كتاب (العدة في أصول الفقه) وهو من كتب الحنابلة في أصول الفقه، كتاب جيد ومفيد، وهو مطبوع.

بعد القاضي أبو يعلى، في تلميذه أبو الخطّاب الكلوذاني، وله كتب مصنفات، منها: كتاب (الانتصار)، ومنها كتاب (التمهيد في أصول الفقه)، ومنها غير ذلك.

وأيضا في هذه المرحلة هناك الإمام موفق الدين بن قدامة المقدسي، المتوفي سنة ستمائة وعشرين للهجرة، وهذا ابن قدامة يعتبر نقطة من النقاط المهمة في مذهب الإمام أحمد.

الإمام ابن قدامة صنف كتبا كثيرة في هذا المذهب، صنف في أصول الفقه كتاب (روضة الناظر وجنة المناظر)، وهو الكتاب المقرر في أكثر كليات الشريعة في المملكة العربية السعودية في أصول الفقه، كليات الشريعة يقررن غالبا روضة الناظر في أصول الفقه.

وله في الفقه عدة كتب، صنف للمبتدئين (عمدة الفقه)، وهو كتاب مفيد ونافع وسهل ومختصر، وصنف لمن فوقهم كتاب (المُقنع)، وصنف بعد ذلك لمن فوقهم كتاب (الكافي)، وبعده الكتاب الموسع (المغني) في الفقه المقارن. ولهذا قال الشاعر:

كفى الناس بالكافي وأقنع طالبا   بمقنع فقه عن كتاب مطول

وأغنى بمغني الفقه من كان عالما   وعمدته من يعتمدها يحصل

وهذا من فقهه رحمه الله في التعليم:

- ولهذا صنف (العمدة) على قول واحد، لا يذكر فيها أي خلاف أبدا، وهذا من فقه التعليم، أن تبدأ طالب العلم تذكر له قولا واحدا، يعتمده ويحفظه ويسير عليه ويتعبد به.
- بعد ذلك تنقله مرحلة ثانية، في (المقنع) ذكر روايات داخل المذهب، يذكر روايتين (غالبا) في المذهب.

وبالمناسبة، كتاب (المقنع)، إذا جئت للحنابلة تجد أن عمل الحنابلة وشغلهم الأكبر في مرحلة المتقدمين على كتاب الخِرَقي (مختصر الخِرَقي) كان هو الكتاب المعتمد في التدريس وهو الذي شُرِح وخُدم، إلى مرحلة ابن قدامة.

بعد أن ألف ابن قدامة كتابه (المقنع) دار الناس في فلكه، فصار شغل الحنابلة في الشرح والتدريس والحفظ على كتاب (المقنع) لابن قدامة، فشرح عدة شروح؛ مثل ما قلنا: مختصر الخِرَقي شُرِح عدة شروح منها (المغني)، ومنها (شرح الزركشي) وهو مطبوع، تحقيق شيخنا عبد الله بن جبرين رحمه الله. و(المقنع) أيضا شرح بعدة شروح، منها (المبدع)، ومنها (الشرح الكبير) لابن أبي عمر، وهي كتب مفيدة ونفيسة.

~ و(الكافي) مرحلة ثالثة، يذكر فيها الأدلة، ويتوسع في ذكر الروايات.

~ وأما المرحلة الأخيرة فهي مرحلة (المغني) يذكر فيها أقوال حتى المذاهب الأخرى، الخلاف العالي.

ومن الخطا أن يأتي طالب العلم يدرس (العمدة) فيُصبّ له (المغني)؛ يعني أنت تشرح (العمدة) وتقول: بسم الله الرحمن الرحيم، هذه مسألة اختلف فيها الفقهاء على خمسة أقوال، طيب: يا أخي خذ (المغني) واشرحه! إذا كنت ستشرح في الفقه المقارن خذ (المغني). لكن طالب العلم يتدرج، وهذه من أهم قواعد طلب العلم، (قاعدة التدرج)، وهي من القواعد المهمة جدا لطالب العلم.

قلنا، بعد ابن قدامة صار هو نقطة الارتكاز والخدمة في المذهب، وهو كتاب (المقنع).

بالمناسبة، نريد أن نتوسع في كتاب (المقنع). المقنع هذا من شروحه أيضا كتاب (الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف)، وكتاب (الإنصاف) يأخذ (المقنع) مسألة مسألة، فيقول مثلا : "قوله رحمة الله تعالى: كذا، هذا المذهب وعليه الأصحاب، والرواية الثانية عن الإمام أحمد كذا.."، يبين روايات الإمام أحمد في كل مسألة.

نكمل وسنرجع مرة أخرى إلى هذه الكتب.

بعد ذلك جاء الإمام ابن تيمية رحمة الله وألف كتاب (المُحرّر) في الفقه، وابن تيمية هذا صاحب (المحرر) هو الجد، لأن آل قدامة وآل تيمية وآل مفلح أيضا، هذه من بيوت الحنابلة التي خرج منها عدد من العلماء.

يعني ابن قدامة، هذا البيت وهذه العائلة - ابن قدامة المقدسي وعائلته - صنّف فيها عدد من أهل العلم:

~ فعندنا ابن قدامة المقدسي صاحب (المقنع) الذي ذكرناه.

~ وعندنا ابن أخيه عبد الرحمن بن قدامة شارح المقنع، صاحب (الشرح الكبير).

~ وعندنا أيضا في نفس العائلة صاحب (العمدة) (عمدة الأحكام) وليس (عمدة الفقه)، عبد الغني المقدسي.

~ وعندنا أيضا بهاء الدين المقدسي، صاحب (العدة شرح العمدة) وغيرهم المقادسة.

وبالمناسبة، الحنابلة كان لهم وجود كبير في بيت المقدس وفي فلسطين وفي بلاد الشام.

ابن تيمية رحمة الله، هذه العائلة أيضا فيها الجد، وهو: مجد الدين بن تيمية، يسمى المجد عند الحنابلة، صاحب كتاب (المُحرر) وصاحب كتاب (المنتقى) في الحديث (منتقى الأخبار) الذي شرحه الشوكاني في كتابه (نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار). كذلك عندنا الابن وهو: عبد الحليم، والد شيخ الإسلام، والحفيد وهو شيخ الإسلام ابن تيمية أبو العباس، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، هو وأبوه وجده علماء، فخاتمتهم شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني. عندنا الجد، وعندنا الابن، وعندنا الحفيد ابن تيمية، طيب: ابن تيمية الإسلام، له ولد؟ ما تزوج، لم يتزوج رحمه الله رحمة واسعة.

إذا هذا بالنسبة لابن تيمية، وابن تيمية صاحب (المحرر) هذا هو الجد المجد.

ومن علماء المذهب في مرحلة التحرير والتنقيح ابن مفلح، وابن مفلح أيضا عندنا جد وعندنا حفيد، فالجد صاحب كتاب (الفروع) وصاحب كتاب (الآداب الشرعية)، وعندنا ابن، حفيده وهو ابن مفلح صاحب كتاب (المبدع شرح المقنع).

ومن علماء هذه المرحلة، وبه ختم التنقيح الأول للمذهب، وهو العالم الذي يسمى المصحح والمرجح والمنقح، وهو: علاء الدين المرداوي القاضي، ألف كتابا عظيما سماه (الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف).

هذا الكتاب كتاب واحد لكن في بطنه يمكن مئات الكتب، أخذ كل كتب الحنابلة قبله واستقرأها، فيذكر جميع الأقوال التي قال بها علماء الحنابلة؛ يأتي للمسألة الأولى، يقول: هذه المسألة فيها مثلا ثلاثة روايات عن الإمام أحمد، الرواية الأولى رجحها فلان وفلان وفلان، والثانية رجحها فلان وفلان وفلان، وهكذا...

فإذا أردت أن تعرف روايات وأوجه المذهب الحنبلي؛ لأن المذهب الحنبلي قد يكون فيه أكثر من رواية، قد يكون فيه أكثر من قول في داخل المذهب الحنبلي، ترجع إلى كتاب (الإنصاف) للمرداوي. علاء الدين المرادوي رحمه الله، وصحح المذهب، واعتمد الناس على كتبه في تصحيح المذهب.

المرداوي له كتاب (الإنصاف) وله كتب أخرى، يعني له كتاب في أصول الفقه، كتاب كبير اسمه (التحرير)، وله شرح اسمه (التحبير)، وهذا كتاب كبير في أصول الفقه. وله أيضا كتب أخرى في الفقه مثل (التنقيح المشبع في تحرير أحكام المقنع)، وله كتاب (تصحيح الفروع). (الفروع) لابن مفلح الجد، وصححه المرادوي، كتب عليه كتابا سماه (تصحيح الفروع).

المذهب الحنبلي (المتأخرين)

دور استقرار المذهب

ثم جاءت المرحلة الثالثة وهي دور استقرار المذهب وكتبت فيها المتون.

بالنسبة لاستقرار المذهب، جاء العالم الذي يقال له موسى الحجاوي، وألف كتابه (الإقناع لطالب الانتفاع)، وهذا أوسع متن في المذهب الحنبلي، أربع مجلدات، وهو مطبوع بتحقيق الشيخ عبد الله التركي، وهو كتاب موسع، ومفيد جدا جدا.

وأيضا له كتاب مشهور اعتمده الحنابلة في التدريس، وهو (زاد المستقنع) الذي شرحه كثير من أهل العلم.

كتاب (الإقناع) هذا شرحه البهوتي في (كشاف القناع) وستأتي الإشارة إليه.

وأما (زاد المستقنع) وهو كتاب اعتمد في التدريس - لو نتكلم عن (زاد المستقنع) محاضرة واحدة فقط عنه وعن الكتب التي شرحته يمكن بالكاد تكفينا - كتاب الزاد هذا (زاد المستقنع) ألف عليه البهوتي (الروض المربع)، وهو المقرر في كليات الشريعة، في أكثر جامعات المملكة العربية السعودية، كتاب (الروض المربع) للشيخ منصور بن يونس البهوتي المصري.

الشيخ منصور البهوتي ألف (الروض المربع)، جاء عدد من العلماء وكتبوا حواشي على (الروض المربع)، من أوسعها حاشية الشيخ عبد الرحمن بن قاسم النجدي في سبع مجلدات، وفي حاشية للشيخ عبد الله العنقري في ثلاث مجلدات، وفي حاشية ابن فيروز. وفيه من الشروح المعاصرة على (زاد المستقنع) الشرح الممتع للشيخ ابن عثيمين، وفيه أكثر من شرح للشيخ صالح الفوزان حفظه الله، وفيه شرح للشيخ فيصل آل مبارك اسمه (كلمات السداد على متن الزاد). أيضا فيه شرح لـ (زاد المستقنع) للشيخ صالح البليهي، المسمى بـ (السلسبيل في معرفة الدليل).

ننتقل بعد ذلك إلى العالم الثاني وهو ابن النجار الفتوحي، مصري. الحجاوي من بلاد الشام، شامي، والفتوحي مصري. وبالمناسبة، في المرحلة المتأخرة هذه تكاد تنحصر خدمة المذهب وجهود المذهب في أهل الشام وأهل مصر، ثم بعد ذلك ظهرت أيضا المدرسة في نجد - الحنابلة-، لكن في مرحلة الحجاوي والبهوتي تجد الحجاوي في الشام وابن النجار في مصر. وهذا الكتاب الذي ألفه ابن النجار اسمه (المنتهى) (منتهى الإرادات).

وبعد ما ألف الحجاوي (الإقناع) وابن النجار ألف (المنتهى)، صار الحنابلة عندهم إذا اتفق (الإقناع) و(المنتهى) على قول فهو المعتمد في المذهب، إذا اتفق كتاب (الإقناع) مع كتاب (المنتهى) فذلك المذهب لا نزاع، ولهذا يقول شيخنا ابن عقيل رحمه الله يقول:

والمنتهى إن وافق الإقناع فذلك المذهب لا نزاع

إذن هذا بالنسبة للحجاوي وابن النجار.

وابن النجار ألف أيضا في أصول الفقه. كتاب في المذهب الحنبلي في أصول الفقه، وهو (مختصر التحرير) وشرحه أيضا بكتابه (شرح الكوكب المنير)، وهو من أنفس كتب الحنابلة في أصول الفقه، كتاب مركز ومختصر ومرتب وجامع، اسمه (شرح الكوكب المنير)، وهو شرح على (مختصر التحرير). التحرير للمرداوي، اختصره ابن النجار.

أيضا من علماء هذه المرحلة الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي، من بلاد الشام، وألف كتبا كثيرة، من أبرزها كتابان: كتاب يعتبر مرجعا في معرفة المذهب، وكتاب يعتبر كتابا دراسيا ومتنا مختصرا.

أما الكتاب الموسع فهو (غاية المنتهى)، (غاية المنتهى) جمع الإقناع مع المنتهى. فنحن قلنا إن المذهب هو ما اتفق عليه (الإقناع) و(المنتهى)، جاء مرعي الكرمي وجمعهما في كتاب واحد سماه (غاية المنتهى في الجمع بين الإقناع والمنتهى. وشُرِح، شرحه الرحيباني في كتابه (مطالب أولي النهى)، وكل هذه الكتب موجودة ومطبوعة.

ومن كتبه أيضا - أي الشيخ مرعي - وهو الكتاب الثاني كتاب (دليل الطالب لنيل المطالب). وكتاب (دليل الطالب) هذا مشهور، وهو كتاب معتمد في التدريس في حلقات العلم في المذهب الحنبلي، وشرح بعدة شروح.

آخر شيخ ذكرناه في استقرار المذهب هو الشيخ منصور البهوتي صاحب (كشاف القناع عن متن الإقناع) الذي شرح فيه (الإقناع) للحجاوي، وله أيضا (الروض المربع) وذكرناه، وله (شرح على منتهى الإرادات)، فهو شارح المذهب بلا منازع، يعني أكثرَ من خدم المذهب من ناحية الشروح هو الشيخ منصور البهوتي.

نرجع إلى (دليل الطالب) لمرعي الكرمي. أنت قلت (هداية الراغب) للشيخ عثمان النجدي، وهو شرح لـ (عمدة الطالب)، عمدة الطالب للشيخ منصور البهوتي. الشيخ منصور البهوتي له متن اسمه (عمدة الطالب) شرحه الشيخ عثمان النجدي في كتابه (هداية الراغب) وهذبه الشيخ البسّام في كتابه المشهور المسمى (نيل المآرب في تهذيب شرح عمدة الطالب).

كتاب (دليل الطالب) شروحه: (منار السبيل) للشيخ إبراهيم بن ضويان، وأيضا شرح آخر للتغلبي اسمه (نيل المآرب شرح دليل الطالب)، وطبعا في شرح ابن عوض وهو مطبوع. وفي الفترة الأخيرة طُبعت عدة شروح لدليل الطالب.

والمشايخ يختلفون ما هو الأفضل لطالب العلم؟ (دليل الطالب) أم (زاد المستقنع)؟ منهم من يرجح (زاد المستقنع) ويوصي طلبته بحفظ (زاد المستقنع)، ومنهم من يرجح (دليل الطالب)، وكل واحد منهما له ميزة، دليل الطالب أكثر ترتيبا وأسهل، وأما زاد المستقنع فهو أوسع.

يقولون: "من حفظ الزاد قضى بين العباد"، وقال الناظم:

وفضلوا الزاد على الدليل ... وعللوا لذلك التفضيل
بكثرة الفروع والمسائل ... فلا تكن عن حفظها بذاهل
وبعضهم يفضل الدليل ... ليسره فاحفظ تجد سبيلا

المقصود أنّ المذهب الحنبلي صارت الكتب المعتمدة فيه التدريس غالبًا إما (زاد المستقنع) أو (دليل الطالب)، وهناك متون أخرى معتمدة في التدريس مثل (عمدة الطالب) للشيخ منصور البهوتي، وقد ذكرناه، وله شرح (هداية الراغب). ومن الكتب أيضا المعتمدة في التدريس عند المتأخرين (أخصر المختصرات) لابن بلبان رحمه الله.

و(أخصر المختصرات) هذا له أكثر من شرح، فمن شروحه (كشف المخدرَات) يعني الفوائد المخبأة، وهذا الشرح للبعلي. وهناك شرح آخر للشيخ عثمان النجدي وهو (الفوائد المنتخبات)، وهما شرحان مفيدان.

ومن المتون أيضا التي يعتنى بها في التدريس قلنا: أخصر المختصرات، ودليل الطالب، وزاد المستقنع، وعمدة الطالب، وعندنا أيضا هناك من يعتني مثلا بـ(مختصر خوقير)، للشيخ أبو بكر خوقير، من علماء مكة، وكذلك عندنا (عمدة الفقه) لابن قدامة، هذه كلها كتب جرى العمل على تدريسها في حلقات العلم على المذهب الحنبلي.

بالنسبة لكتب الحنابلة هذه - كتب الفقه الحنبلي: الحقيقة هي متعددة وكل واحد له ميزة، فدعونا نذكر شيئا من ذلك:

- إذا أردت أن تقف على نصوص الإمام أحمد في مسألة من المسائل، فما هو الكتاب الذي ترجع إليه؟ ترجع إلى مسائل الإمام أحمد، ويجمعها كتاب (الجامع لعلوم الإمام أحمد).
- إذا أردت أن تقف على الروايات والأوجه المتعددة في المسألة في المذهب ترجع إلى (الإنصاف) للمرداوي.
- إذا أردت أن تقف على دليل أو أدلة المذهب، وكيف أجابوا عن أدلة المذاهب الأخرى ترجع إلى (المغني) لابن قدامة، ترجع إلى (الشرح الكبير) لابن أبي عمر، ترجع أيضا إلى (الممتع شرح المقنع) لابن المنجى. كذلك يمكن أن ترجع إلى كتب

موسعة، من الكتب أيضا المفيدة في أدلة المذهب كتاب ابن الجوزي (التنقيح لأحاديث التعليق)، وكذلك أيضا كتاب (التعليقة) للقاضي أبي يعلى، وكتاب (الانتصار) للقاضي أبي الخطاب الكلوذاني رحمه الله تعالى.

هذا ما يتعلق بكتب الحنابلة، والمراحل التي مر بها مذهب الإمام أحمد رحمه الله تعالى، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل ما تعلمناه علما نافعا، ولوجه خالصا. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



القناة يُشرف عليها عدد من طلاب وطالبات برنامج البناء المنهجي. توفر لكم: الملخصات، التشجيرات، التحويلات الصوتية، مقاطع الفيديو، شرح الأبيات، وتفريغ المحاضرات المرئية والصوتية وتنسيقها بشكل مميز.

رابط القناة

https://t.me/sohbah